953
M926A

الدكتور صلاح الدين المنجد

بين

الخلفاء والخلعاء

في العصر العباسي

دار الحياة

بيروت

١٩٥٧

2290

تمهيد

لم يدرس العصر العباسي حتى اليوم دراسة دقيقة مفصلة، ترى فيها معالمه واضحة . وجل الدراسات التي بين ايدينا تدور حول التاريخ السياسي . اما التاريخ الحضاري ، وحياة الطبقات الاجتماعية ، فما يزال خطوطا عامة تحتاج الى كثير من التوضيح والتفصيل .

وكنا عنينا بهذا الامر من قبل ، يوم اصدرنا كتابا عن « الظرفاء والشحاذين » فى العصر العباسي .

وما نشك ان الخلفاء العباسيين أثروا الى حد بعيد في المجتمع الاسلامي ووجهوه ، فقد كانوا مثالا تحذو حذوهم الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وتقلدهم فى الكثير من سيرتهم وملابسهم ومطاعمهم ومجونهم ومباذلهم . فكان لابد من توضيح اطراف من حياتهم الخاصة لندرك الاثر الذي تركوه فى الشعب .

وسيجد القارىء فى هذه الصفحات صورا جديدة عن حياة « الخلفاء والخلعاء » وغيرهم ، سلخنا طويلا فى ضمها بعد ان كانت موادها متناثرة ، ينعكس فيها ازدهار الحضارة ، وما بلغته من رقي ورفيف .

فاذا استطاعت هذه الصور ان تسهم فى تأريخ الحضارة العربية فى عصر كان من اغنى وأعنف عصور تاريخنا ، فقد بلغنا ما هدفنا اليه .

صلاح الدين المنجد

- ١ -

حكومة النساء لدى الخلفاء

يقول « دوفيل » فى كتابه عن الامبراطورة جوزفين (١) :

« ان من النساء من اوتين الميل الى الحكم والرغبة فيه ، رغم مافيه من مشاق ومتاعب . لانهن لايرين فى شيء من الاشياء مستحيلا . فتلك ظاهرة ، فى طبعهن وغريزتهن ، فهن يرغبن فى الاحاطة بكل شيء علما ، وعرفان ماتحته وما فوقه ،ليتممن النقص الذي فيهن . فهن يحكمن عشاقهن . فاذا اخطأهن ما املن ، حكمن ازواجهن واولادهن . ثم تعدين ذلك الى حكم صواحبهن ، فاذا وجدن المجال ذا سعة ، وكن ممن يلوذ بالملوك والامراء والوزرآء ، سولت لهن انفسهن ان يحكمن الرعية ويدبرن امورها . »

اما حكمهن العشاق ، فأمر لاريب فيه . فهن في اغلب الاحايين عابثات بالقلوب ، لاعبات بالالباب . اما حكمهن الازواج فأمر كثير الوقوع وندر آن تجد امرأة لاتحكم زوجها . ولكن حكمهن العباد ، وتصريفهن الامور ، وتدبيرهن الملك قد

(١) L'Imperatrice Josephine (Flammarion)

تبدو مستحيلة لاتقع ، بعيدة لاتنال . على ان لجاجة النساء لاتوصف والحاههن لايدرك ، ثم هن لايعرفن المستحيل . وفى التاريخ الاسلامي الوان من البرهانات ، تدل على حكمهن . وسأسوق الادلة من بدء العصر العباسي الى منتصف القرن الرابع .

وقبل ان ابدأ ، اذكر ان الجاحظ قد لاحظ بعض هذا ، فقال : « انه لم يزل للملوك اماء يختلفن فى الحوائج ،ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس» . فيذللن ما صعب وينلن مابعد . على ان سلطانهن كان على قدر مبلغ سحرهن ونفوذ أثرهن وتملكهن قلوب الخلفاء . وواضح ان تحكمهن يكون على قدر ضعف الخليفة ورقة عقله وانقياده . ولذلك تجد ان بعضهم تركوا لهن الامر كله ، وان بعضهم سايروهن مرة وغاضبوهن مرة ، وآخرون لم يحفلوا بهن ابدا .

فالسفاح ، ابتعد عن النساء ، فلم يرغب فيهن لملذاته بله استشاراته . وحاول خالد بن صفوان ان يثير شهواته مرة بذكر الجواري واوصافهن ليغريه بشرائهن ، فلم يفلح . وكان يقول : « العجب ممن يترك ان يزداد علما ، ويختار ان يزداد جهلا ! »

فسئل : ماتأويل ذلك ؟

قال : يترك مجالسه مثلك ومثلَ اصحابك ، ويدخل الى امرأة فلا يزال يسمع سخفا ويروي نقصا !

على ان المنصور كان ألين منه ، واندى سمعا للنساء . تزوج ابنة منصور الحميرية ، فشرطت عليه ان لايتزوج ولا يتسرى الا عن امرها ،ففعل. ولم يتعد سلطانها زوجها. (١)

وبدأ سلطان المرأة يقوى مذ تولى المهدي الخلافة ، وتزوج الخيزران. فقد كان لها سلطانعلى القصر ، والندماء والحجاب والاطباء ، تقرب منهم من تشاء وتبعد من تشاء . ولقد اخذت مرة فى مناكدة بختيشوع بن جورجيس الطبيب ومضاربته ، واثرت فى المهدي ، فلم ير بدا من اعادته الى جند يسابور . (٢)

فلما ولي الخلافة الهادي ، زاد نفوذ الخيزران وتدخلها فى شؤون الدولة . وقد كان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب ويلهو ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم للخلافة أبهة ولا عظمة فلا عجب ممن كان هذا شأنه ان وكل امور الدولة كلها الى امه الخيزران ، فكان كثير الطاعة لها يجيبها فيما تسأل من الحوائج . فكانت المواكب لاتخلو من بابها . وبلغ الامر بها ان استولت على زمام الامور .

واستيقظ الهادي من غفوته او غفلته ، ورای أن أمور الدولة بين يدي امه . فكلمته ذات يوم فى أمر ، فلم يجد الى اجابتها سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت : لابد من اجابتي !

قال : لاافعل !

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٣٠٠

(٢) اخبار الحكماء للقفطي ، ص ١٠١

قالت : اذا لااسألك حاجة ابدا !

قال : اذا والله لاابالي ، ولئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او احد من خاصتي او خدمي لاضربن عنقه ، ولأقبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك !

ثم اخذ يعنفها ويؤنبها ويقول لها : مآهذه المواكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ اما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك . اياك اياك ان تفتحي فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمي ! (١)

كانت الخيزران من ذوات الاثرة . وهذا النوع من النساء لايبالي بما يفعل فى سبيل آرضاء الاثرة والانانية وبسط النفوذ . ولقد كانت ترغب فى الامر والنهي والحكم . فوقف الهادي — بعد ان اتسع الخرق — ليسترد سلطانه . فلما ضايقها الامر وآنست من ابنها معارضة وقوة ، وآلمها ان يذهب سلطانها ، وترد المواكب عن بابها ، ارادت ان تنتقم منه ، فدست اليه جواري من جواريها غطين وجهه وجلسن فوقه فقتلنه (٢) ، كل ذلك ليعود الامر اليها وحدها كما كان . وقد تم لها ما أرادت وتدفقت عليها الاموال ،حتى بلغت غلتها قبيل موتها مائة الف الف وستين الف درهم . (٣) وقد قدر

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٥٨

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ، ٤٠

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٦٣

احدهم ان هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ وثلثي غلة روكفلر فى هذا القرن . (١)

فلما ولي هارون الخلافة ، كانت الخيزران هي الناظرة فى الامور . وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها (٢) وكان الرشيد لايعصى لها امراً . وقد ذكر الطبري ان الرشيد لما عاد من دفنها ، دعا الفضل بن الربيع وقال له : وحق المهدي ، اني لأهم لك من الليل بآلشيء من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي ، فأطيع امرها ! (٣)

اما بعد مقتل البرامكة فقد استبد الرشيد برأيه ، حتى ان ظئره أم جعفر — وكانت قد أرضعته وربته — دخلت عليه ايام النكبة فتلقاها وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، أيعدو علينا الزمان ويجفونا ، خوفا لك ، الاعوان ، وقد ربيتك فى حجري ، وأخذت برضاعك الامان من عدوي ودهري ؟

ثم اخذت تستشفعه فى يحيى والفضل ، فلم يسمع لها ولم يرق لكلامها . (٤)

ولم يكن لزبيدة من الامر ، زمن الرشيد ، ماكان للخيزران ،

---

(١) التمدن الاسلامي لزيدان ، ج ٢ ، ١١١

(٢) الطبري ، حوادث سنة ١٧٠

(٣) المصدر السابق

(٤) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٦٧

وان كانت هي أيضا ذات سلطان . وكانت تهب وتصل وتعطي وتستشفع ولكنها ماكانت تتدخل فى شؤون الدولة . ولعل ذلك راجع الى البرامكة الذين استولوا على الامور كلها .

وفى الحقبة الممتدة بين خلافة المأمون والمعتضد ، نلاحظ تدخل القيان من مسمعات ومغنيات وشواعر فى أمور الدولة . ونلاحظ عظيم سطوتهن عند الخلفاء ... فكن يستشفعن ويقربن ويولين ويبعدن . وان كان بعض هذا قد حدث زمن الرشيد ايضا . فقد كان كلفا بذات الخال ، فحلف لها يوما ان لاتسأله شيئا الا قضاه . فسألته ان يولي رجلا يحبها ،الحرب والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ذلك وكتب عهده به . وشرط على ولي العهد بعده أن يتمها له ان لم تتم فى حياته . ولعله اجابها الى ما سألت ليخلو له ، او لها ، الجو . (١)

ويذكر الاصبهاني ان ابرأهيم بن المدبر ، لما سجن ، سألت عريب — وما ادراك ماعريب ! — الخليفة فى اخراجه . فوعدها بما تحب ، ثم أطلقه . (٢)

وكانت القيان ذوات السلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية او يشايعن مذهبا ، ويقضين حوائج أهله عند أولي الامر . وقد ذكر ابن المعتز ان فضلا الشاعرة — وكانت فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة وجودة الشعر — كانت تتشيع ، وتتعصب

(١) الأغاني ، ج ١٥ ، ص ٧٦
(٢) المصدر السابق، ج ١٩ ، ١١٦ .

لهذه العصابة من الناس ، وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والاشراف . (١)

وغضب الواثق مرة على اسحاق الموصلي ، فرضته عليه فريدة جاريته . وكانت أثيرة عند الواثق حظية لديه . (٢)

***

وما كاد يقترب القرن الرابع حتى اصبح النساء والقيان ذوات سلطان كبير . ويذهب آدم متز الى أنهن كن يطالبن بالحق بالمهام الكبيرة — وما اشبه الليلة بالبارحة — لان ابن بسام الشاعر يقول :

ما للنساء وللكتا — بة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهن منا — ان يبتن على جنابه (٣)

على ان القرن الرابع قد امتاز بالقهرمانات ، فقد كان لهن الامر كله ، وكن يعملن الاعمال الكبار ، يعزلن الوزراء ويولين الولاة ، ويجلسن للمظالم . وقد ذهبن الى ابعد من هذا وذاك فكن يقضين بين الناس . فأم موسى القهرمانة هي التي أوصلت ابا الحسين بن ابي البغل الى الوزارة ،فكان لايخرج عن أمرها(٤)

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ٢٠٠
(٢) الأغاني ، ج ٥ ، ٩٠
(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٤٥
(٤) الصابي ، ص ٢٧٢

وكانت تجلس أخا لها عند القصر ، فيلقاه النـــاس واصحاب الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم اليها . (١)

وهي التي اغرت المقتدر بالله والسيدة أمه ، بعلي بن عيسى بـن داود في وزارتـه (سنة ٣٠٤ هـ) فقبض عليـه واودع السجـــن . (٢)

وهي التي كانت تزيد في ارزاق الخدم وتنقص منها . (٣)

والسبب في تدخل هؤلاء القهرمانات في امور الدولة ، ضعف المقتدر . فقد كان مشهورا بالتدبر بآراء النساء (٤) وكانت السيدة والدته ، وخاطف ، ودستنبويه ، ام ولد المعتضد ، يدبرن آلامر لصغره . ثم ظل تدخلهن جاريا . وهكذا انتقلت الحكومة في ايامه ، في بغداد ، من الرجال الى النساء .

ويذكر السيوطي انه في سنة ٣٠٦ هـ ، ـ أي زمن المقتدر ـ آل الامر الى ان أمرت أم المقتدر قهرمانة لها تعرف (بمثل) ان تجلس للمظالم بالتربة آلتي بنتها بالرصافة ، وان تنظر في رقاع الناس كل جمعة . فكانت تجلس ، وتحضر القضـــاة والاعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها . (٥)

---

(١) الصابي ، ص ٢٧٧
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٩
(٥) المنتظم لابن الجوزي ، ج ٦ ، ١٤٨

وقبضت أم المقتدر على زمام الامر . وامتد سلطانها علـى كل شيء حتى انها كانت تراقب ـ لحذرها ـ ماكان يقـرأه أبناؤها . وقد ذكر الصولي انه كان يوما عند الراضي يقـرأ عليه شيئا من شعر بشار ، وبين يدي الراضي كتب لغة وكتب اخبار ، اذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهي شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع مابين ايديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل أبيض كان معهم ومضوا . فاغتاظ الراضي . فسكن منه استاذه ، وأفهمه انهم ارادوا ان يمتحنوا الكتب . ولـما مضت ساعتان او نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضي : « قولوا لمن امركم بهذا : قد رأيت هـذه الكتب ، وانمـا هي حديث وفقه وشعر ولغة واخبار وكتب العلماء ، وليست مـن كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد ، والسنـور والفـأر . » (١)

وظل المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاما ، والنساء من حـوله يحكمن .

ومن الطرافة ان نذكر هنا ان المعتضد كان قد تنبأ لابنـه المقتدر بان النساء سيستولين عليه . حدث صافي الحرمي مولى المعتضد قال : مشيت يوما بين يدي المعتضد ، وهو يريد دور الحرم فلما بلغ باب شغب (أم المقتدر) ، وقف يتسمـع

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ١٦ ـ نقلا عن اوراق الصولي .

ويتطلع من خلل الستر فاذا هو المقتدر ، وله اذ ذاك خمس سنين أو نحوها ، وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصايف من اقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب فى وقت لايوجد فيه العنب ، والصبي يأكل عنبةواحدة ثم يطعم الوصائف كلهن على الدور ، حتى اذا بلغ الدور اليه اكل عنبة واحدة ، حتى فني العنقود ، والمعتضد يتميز غيضا . فاهتم ورجع ، فسألته فقال : والله ياصافي ، لولا النار والعار لقتلت هذا الصبي اليوم ، فان فى قتله صلاحا للامة !

فقلت : يامولاي حاشاه ، اي شيء عمله ؟ أعيذك بالله من اللعين ابليس !

فقال : ويحك ، انا ابصر بما اقول . أنا رجل قد سست الامور واصلحت الدنيا بعد فساد شديد ، ولا بد من موتي . واعلم ان الناس بعدي لايختارون غير ولدي . وسيجلسون ابني عليا (يعني المكتفي) ، وما اظن عمره يطول للعلة التي به (يعني الخنازير التي كانت فى حلقه) فيتلف عن قريب ، ولا يرى الناس اخراجها عن ولدي فلا يجدون بعده اكبر من جعفر (يعني المقتدر) فيجلسونه وهو صبي . وله من الطبع فى السخاء هذا الذي رأيت . فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن ، ويقسم ماجمعه من الاموال كما قسم العنب !

وكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها . (١) .

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٧١

وفى عهد المقتدر اشتد سلطان امراة اخرى يقال لها « زيدان » ، وكان لها طبيب خاص بها ، هو عيسى البغدادي ، يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها اليها لتعرض ذلك على الخليفة . (١)

وقد استطاعت زيدان هذه ان تتمكن من جواهر المقتدر وان تأخذ سبحة لم ير مثلها ، كان يضرب بها المثل ، فيقال سبحة زيدان . وكانت قيمتها ثلثماية الف دينار (٢) واستطاعت ان تجعل دارها سجنا . فقد سجن عندها علي بن عيسى بن داود بعد وزارته (٣) ، ومن قبله وكل بأبن الفرات عندها (٤) كما سلم اليها الامر الحسين بن حمدان ايضا . (٥)

وثمة خليفة آخر لعبت به النساء ، هو المستكفي . فقد كان عبدا لحسن الشيرازية . وكانت هذه قد سفرت بينه وبين توزون القائد التركي ، واستطاعت ان تجعله خليفة ، وتولت ايضا سمل المتقي بيد غلامها السندي . (٦)

واصبحت بعد ذلك تستبد بالمستكفي ، وتتولى عرض الغلمان

(١) تاريخ الحكماء للقفطي ، ص ٢٤٩
(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٧٠
(٣) الصابي ، ص ٢٨٦
(٤) الصابي ، ص ١٠٥
(٥) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٣
(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢١

والحجاب فى قصر الخليفة ، فى مجلس يقال لـه الحـوذان . فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التي كـانت للخلافة وصارت الدار طريقا لكل من يراها . (١)

***

يتضح من هذا ، ماكان عليـه خلفاء بني العبـاس ، حتى منتصف القرن الرابع ، وما كان من أثر النساء فيهم ، ومـا أدى تدخلهن فى الامور ، من انخراق الهيبة ، وضياع الامور ، وانتشار الفوضى . وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يولي امره امرأة ويدعها تفعل ماتشاء .

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٠

- ٢ -

القريـة الفضية

هذه القرية ، هي احدى عجائب العصر العباسي فى بغداد . وما اكثر ماكان فى زمن العباسيين من عجائب . وكانت قريـة من فضة ، وفيها كل ماتجد فى القرى : من بقر ، وغنم ، وجمال ، وجواميس ، واشجار ، ونباتات ، ومساح ، وناس . وكـل ذلك قد صنع بأدق صنعة من الفضة ، وأنفـق عليـه آلاف مـؤلفـة مـن الـدراهم .

وكانت هذه القرية قد صنعت للخليفة المقتدر ، ليرى كيف تكون القرى . وأغلب الظن انه اشتهى رؤية قرية وصنعت هـذه لـه .

وقد نعجب بالحضارة الاسلامية التي بلغت فى القـرن الرابع الهجري نضجها فابدعت أشباه هذه الاشياء . وقـد يدهشنا ماأنفق هذا الخليفة من الاموال ، لتصنع له هذهالقرية . ولكن الذي يدعو الى العجب والدهشة معا ، قصة هذه القرية وأثر النساء فى مصيرهـا .

م ٢

وهذه القصة جديرة بان تكون خاتمة لما ذكرناه عن حكومة النساء لدى الخلفاء فى زمن بني العباس .

ذلك ان أم المقتدر ــ وكان لها من الشأن ماعلمت ــ كان لها داية تخدمها تسمى « نظم » . وكانت نظم بارعة ذكية ، فما زالت حتى صارت من قهارمها ، وصارت تجري على يديها الكبير من الامور والصغير . وكانت نظم ترغب فى رجل اسمه ابو القاسم يوسف بن يحيى ، فرفعته ، وانتهت به الى اسنى الارزاق وأوسع الاحوال ، وقربت بينه وبين السيدة حتى اخرجت له الصلات ، فتأثلت حاله ، وصار صاحب عشرات الوف من الدنانير ، ثم خلطته بخدمة السيدة الأم ، فزاد منها تقربا .

وعزم ابو القاسم هذا ، على تطهير ابنه يوما ، فأعد لوليمة الختان عدة كبيرة ، وأنفق على ذلك مالم يسمع ان فعل مثله رجل من الحاشية ، حتى انه لكثرة ماأبتاع من الحاجات أفرد عدة دور للحيوان ، وعدة دور للفاكهة . وبلغ « نظم » خبره ، فسعت عند السيدة الام ، وجاءته من عندها بالاموال والفرش والآنية والثياب والمخروط . (١)

فلما مضت ايام سألت السيدة « نظما » : يانظم ، أيش خبر طهر ابن يوسف ؟

(١) المخروط ضرب من الزجاج

قالت : ياستي ، قد بقيت عليه أشياء يريدها !

فقالت : خذي ماتريدين واحمليه اليه !

فجاءت نظم اليه وقالت : ان كان قد بقي فى نفسك شيء ، فعرفني .

فقال لها : الختان غدا ، وما بقي فى نفسي شيء الا وقد بلغته بك ، وقد بقي فى نفسي شيء لست أجسر على مسألته !

قالت : قل مافي نفسك !

قال : أشتهي اعارة القرية الفضية التي عملت لامير المؤمنين ليراها الناس فى داري ، ويشاهدوا مالم يشاهدوا مثله ، فيعلموا مالي من الاختصاص والعناية !

فوجمت ، وقالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ،ومقداره عظيم ، وفى هذه القرية مئآت الالوف من الدراهم ، ولا أحسب جاهي يبلغ اليها . وكيف يستعار من خليفة شيء ؟ ومتى سمع بخليفة يعير ؟ ولكن انا أسأل السيدة !

وندع الان أبا القاسم يقص علينا ماحدث قال :

فلما كان الليل جاءتني ، فقلت : ماالخبر ؟

قالت : كل ماتحب ، قد جئتك بالقرية هبة لا عارية . وجئتك معها بصلة ابتدأ بها أمير المؤمنين من غير مسألة احد .

فقلت : ماالخبر ؟

قالت : مضيت وأنا منكسرة القلب ، آيسة من أن يتم هذا . فدخلت على السيدة ، على هيئتي تلك . فقالت : « من اين ؟ »

قلت : من عند عبدك يوسف . وهو على أن يطهر ابنه غدا .

قالت : أراكِ منكسرة !

قالت : ببقائك ما أنا منكسرة !

قالت : ففي وجهك حديث !

فقلت : خير !

قالت : بحياتي عليك ، ماذاك ؟

قلت : قد شكر ماعومل به ودعا ، وقال أني أحب ان أتشرف بما لم يتشرف به احد قبلي ليعلم موضعي من الخدمة.

قالت : وما هو ؟

قلت : يسأل ان يعار القرية ليتجمل بها ، ويردها من غد !

فأمسكت ، ثم قالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ،كيف يحسن ان يرى فى دار غيره . وكيف يحسن ان يقال ان الخليفة استعاره منه بعض خدمه ثم استرده منه ؟ وهذا فضيحة ، وليس يجوز ان أسأله هبتها له ، لاني لاادري ان كان قد ملها وشبع منها أم لا . فان كان قد ملها ، فقيمتها عليه هينة . وان كان لم يملها لم أرض ان أفجعه بها ، وسأسبر ماعنده في هذا !

ثم دعت بجارية فقالت : « اعرفوا خبر الخليفة ! » فقيل لها انه عند فلانة ، فقالت (أي لنظم) : تعالي معي ! فقامت ، وانا معها وعدة جوار . حتى دخلت . وكانت عادته اذا رآها ان يقوم لها قائما ، ويعانقها ، ويقبل رأسها ، ويجلسها معه فى دسته (١) . (قالت نظم) : فحين رآها قام وأجلسها معه وقال : ياستي — وهكذا كان يخاطبها — ليس هذا من اوقات تفضلك وزيارتك !

فقالت : ليس من أوقاتي !

ثم حدثته ساعة ، وقالت : يانظم ! متى عزم ابنك يوسف على تطهير ابنه ؟

قلت : غدا !

فقال الخليفة : ان كان يحتاج الى شيء آخر أمرت به .

فقالت : هو مستكف داع. ولكن قد التمس شيئا مااستحسن خطابك فيه .

قال اريد أن اشرف على اهل المملكة كلهم ، ويرى عندي مالم ير فى العالم مثله .

قال الخليفة : وما هو ؟

قالت : ياسيدي يلتمس ان تعيره القرية ، فاذا رآها الناس عنده ارتجعت .

---

(١) الدست كلمة معربة معناها صدر البيت

فقال : ياستي ، والله هذه ظريفة . يستعير خادم لنـــا شيئا ، وتكونين أنت شفيعة ، فأعيره ثم ارتجعه . هذا من عمل العوام لا الخلفاء . ولكن اذا كان محله من رأيك ، هذا ، حتى قد حملت على نفسك بخطابي ، وتجشمت زيارتي ، وانا اعلم انه ليس من أوقات الزيارة ، فقد وهبت له القرية ، فمري بحملها بجميع آلاتها اليه ، وقد رأيت أن اشرفه بشيء آخر : يحمل اليه غدا جميع وظائفنا ، ولا يطبخ لنا شيء البتة ، بل يرسل اليه ويؤخذ لنا سمك طري فقط .

وأمرت السيدة بنقل القرية ، فتملكها ابو القاسم . (١)

فهذه قصة بسيطة ، على ان فيها كثيرا من حياة القصر زمن المقتدر ، وهي تبين لنا طرق الكلام والمحادثة ، وطرق تآمر النساء على الخليفة ، وطرق تبذير الاموال . على ان أعظم هذه الاشياء كلها ، هو تأثير نظم والسيدة فى الخليفة ، وانقياد هذا الخليفة للنساء ، وتركه الامور لهن يصرفنهاكيفما شئن واردن.

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ، ج ٦ ، ٧٤

- ٣ -

اعراس الخلفاء وولائمـــهم

الحديث عن الافراح والولائم وحدها ، بصورة عامة ، لـذ طريف تحن اليه النفس وتهش له الروح ويروق الخاطر ، لانه حديث فيه جذل ولور ، وضحك وسرور ، وجمال وعطـور ، ونحن نحب سماع ذلك لمـا نشعر به عند سماعه . فما ظنكم اذا شع الفرح ، ورف النور ، واشرق الجمال ، وفاح العطـر ، فى قصور بغداد التي زعموا انها فرت من الفردوس ، فأتـت حفافي دجلة لتغرق فى النعيم ، وتتلألأ بالحسان ، وتزهـر بالغلمان ، وتصفق للعزف والشعر ، وتطرب للحب والانغام ؟

الحق ان اعراس بغداد وولائمها كانت افراحا ماطاولتهـا افراح ، فى النضارة والفخامة ، أو فاضلتها فى الروعة والاناقة ، او دانتها فى البهجة والضخامة . ومن اجدر من بغداد العروس، بتقديم اجمـل الاعراس وأعجب الولائم .

واذا كان الحديث عن الاعرأس لذا طريفا ، فالأطرف من التحدث عنها ، أن يشهدها المرء ، فتغمره بنورها ، او ان تصور له فيحس لمرآها بنشوة صافية . ولهذا عني الغربيون بتصوير

مباهج الاعراس الكبيرة ، واستمد منها الفنانون والمصورون روائع خالدة ، ماتزال تزدان بهاقي الغرب المتاحف ودور الآثار. فقد رسم « رافائيل » عرس « ابنة الدوبراندين » الحسناء الفلورنسية ، باروع ماصور به مصور عرسا . وصور عرس « روكسان » زوج الاسكندر المقدوني ، ولكن اروع ألواحه هو عرس « بسيشه » الفتاة الجميلة التي تزوجها اله الحب ، كما تزعم الاساطير . ورسم « رامبرندا » عرس « جانسون وكريبوز » . وكذلك رسم فنانون آخرون اعراس الاغريق . فصور « جان درين » عرس « بيليه » ابي آشيل البطل و « تيتيس » احدى عرائس البحر . واهتم آخرون بتصوير اعراس اخرى استمدوها من التوراة ، كعرس اسحق ، ويعقوب . كما صور غيرهم الاعراس الفلاماندية ، والالزاسية والهولاندية ، والبريطانية ، واعراس فينسيا ، ولشبونة ، وباريس ...

وما أعلم ان العرب تركوا لناصورا تمثل اعراسهم الماضيات، رغم انهم برعوا فى التصوير براعة كبرى ، فزينوا جدران قصورهم بتصاوير شتى ، تعجب لحسنها العين ، وتدهش لاتقانها النفس . وما ندري فلعلهم صوروا مباهج ترفهم على جدران قصورهم ، فعفاها كر العصور ، وكثرة الفتن .

على ان كتب الادب والتاريخ ، قد حفظت لنا اوصافا دقيقة لاعراسهم وولائمهم ، تغنينا عن الالواح والصور .

فمنذ بدأت حقبة الترف ، زمن المهدي ، ظهرت روعة الافراح . فقد كانت الثروة قد اتسعت ، وكان الفرس قد تغلغلت فى البلاد . وكان المهدي نفسه لايحفل بالمال ولا يمسكه ، وكان ميالا للبذخ والطرب واقتناص اللذات . فلذ بما شاء ، وترف بما اراد ، ولها بما أحب . ولعل بذخه وترفه يظهران فى الزفاف الذي اقامه لابنه هارون الرشيد ، عندما تزوج زبيدة . فقد احتفل بذلك احتفالا كبيرا ، واستعد له استعدادا عظيما ، وانفق عليه خمسين الف ألف درهم . فماذا صنع ؟

لقد اقام الزفاف فى قصر الخلد ، على ضفاف دجلة ، ودعا الناس قبل شهور من الآفاق ، فاقبلوا مسرعين ، يمنون انفسهم بنوال كثير ، ومقام طيب . فاضافهم المهدي . واتى بالآلات المختلفات : أتى بالآنية المصنوعة من الذهب والفضة ، وبالفرش والبسط الارمينية الفاخرة ، هذه البسط التي كان الوليد بن يزيد يحبها ، ويفرش بها أرض مجالسه ، ويزين بها حيطان قصوره ، والتي كانت آفخر ما يهدى للخلفاء ، والتي قال عنها ماركوبولو الرحالة ، لم تر عيني اجمل ولااجود منها . واتى ايضا بالثياب المطرزاتبالذهب ،وبالطيب المختلف الالوان والضروب ، وبالجوهر الذي ملأ به الصناديق الكبار ، وبالحلى المرتفعات الاثمان . وملأ القصر باجمل الوصائف والخدم والغلمان .

فلما كانت ليلة الزف ، البس زبيدة العروس قميصا كله

من الدر الكبار ، مما لم ير مثله ، ولم يقف احد من المقومين له على قيمة لنفاسته . وألبسها بدنة امرأة هشام بن عبد الملك ، والبدنة ثوب كله من الذهب ، لايدخل فيه من الغزل سوى اوقيتين ، وينسج سائره بالذهب ، وزينها بالحلى حتى لم تقدر على المشي لكثرة ماعليها من الجوهر . ويقول متز : « ان هذا شيء لم يسبق اليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا ملوك الغرب » . وجاء نساء بني هاشم ، فكان يدفع لكل واحدة منهن ثوب وشي ، وكيسا فيه دنانير ودراهم ، وآنية ملأى بالفضة وكان الخدم يملؤن اواني الذهب بالدراهم واواني الفضة بالدنانير ثم يدفعون ذلك الى وجوه الناس ، ويردفونه بنوافج المسك وقطع العنبر (١) .

وبذخ المهدي بذخا بهر الناس . فقد خلف له المنصور والهادي الاموال الكثار ، فترف واتلف . وكان هذا الزفاف اول ما تألق من سعد الرشيد . ومات المهدي وخلفه الرشيد فرتع فى بحبوحة من العيش . وامتد السلطان ، وحملت اموال الدنيا الى بغداد ، لا لتنفق فى وجوه الخير دائما ، بل لتفرق على الفرس ، والشعراء ، والقصاد ، وتخبأ لتنفق في زفاف آخر عظيم .

ولعل من الطرافة ان نصف ، قبل ان ننتقل الى ألوان اخرى من الافراح ، وصف عرس قام فى فرنسه ، فى القرون الوسطى،

---

(١) انظر الديارات (دير السوسي)

اي فى الحقبة نفسها ، التي كانت تجري فيها تلك الاعراس فى بغداد ، لتقايس بين اعراسنا واعراسهم .

فقد كانت العادة فى بلاط ملوك فرنسه اذا احتفلوا بزفاف له شأن خطير ان يرقصوا رقصة المشاعل ، وهي ان يمسك كل مدعو الى الحفلة الملوكية ، بشمعة طويلة بيده ، فيرقص ويقفز وهي تشتعل . وقد قص الاخباري « فرواسار »وصف عرس من تلك الاعراس ، حضرها الملك شارل السادس :

قال : اقيمت الحفلة فى القصر الملكي لزفاف احدى وصائف الملكة « ايزابود بافيير » الى رجل من الاشراف فعهد الى فارس نورماندي بترتيب الحفلة . فاراد الفارس ان يتفنن فى الرقص ، ابتغاء مسرة الملكة ، وطلبا لمرضاة النساء . ففكر ان يلبس المدعوون لباس الحيوانات المتوحشة ، من جلود عتيقة ، وصوف غليظ ، وشعر ملبد ، وشرط ان لايشترك فى الحفلة الا من ألصق بجلده شعرا او صوفا ، وتشبه باحد الحيوانات . ونفذت الفكرة ، ولبس النساء والرجال الجلود وألصقوا بها الشعور والصوف ، وغطوا بها اجسامهم من اقدامهم الى رؤوسهم بحيث يحسب الرائي ، ان المدعوين ، وحوش فارة شريدة . ولبس الملك شارل السادس مالبسه غيره ، وقلده اربعة من اكبر رجال البلاط .

وبدأ الرقص . واخذوا جميعا يرسلون ، وهم يقفزون ويرقصون ، اصواتا يقلدون بها اصوات الحيوانات والوحوش،

حاملين تلك المشاعل بايديهم . وكان كلما زاد عواء الواحد منهم او نباحه او زئيره ، واتقن تقليد الصوت ، ازداد اعجاب الحاضرين به ... وبينما كانت الوحوش تصرخ وترقص بفرح وسرور ، مس احد المشاعل ذنب احد الحيوانات . فاشتعل وهو لايشعر . فلما آحس ، ازداد قفزانه فزاد لهبانه . وسرت النار الى الراقصين ، فازداد قفزهم وصراخهم ، وزاد سريان النار فيهم ، فاحترقت جسوم بعضهم ، ولم ينج منهم الا القليل .

ويقول فرواسار ان الملك شارل السادس ، ظهرت عليه علامات الجنون منذ تلك الليلة (١) .

والى جانب هذه الاعراس البغدادية نجد ولائم اشد روعة ، واكثر جمالا . يحسبها القارىء خيالا ، وهي حقيقة .

من هذه الولائم الرائعة ، وليمة صيد اقامتها حمنة بنت عبد الله الهاشمي للمأمون . وكانت حمنة آدب نساء بني هاشم ، فصيحة اللسان ، حلوة الكلام ، كثيرة المال . وكانت تهوى المأمون . فذكروا من خبرها ، ان المأمون كان جالسا يوما فى ايوان واسع قد ابتدعه لنفسه ، وصور على حيطانه صيد البر والبحر ، واقام فيه اربعمائة وصيفة ، بقراطق من حرير ، بقدود واحدة : مئتين عن يمينه ، ومئتين عن يساره .

---

(١) انظر :

F. Brento, La Société au Moyen Age (Flammarion)

وكان عنده يحي بن اكثم كبير القضاة . فدخلت عليهما حمنة . فقال لها المأمون : « هل كان لابيك ياحمينة ، او لاحد من الخلفاء ، مثل هذا الايوان ؟ »

قالت : « متعك الله به وعمره بك . ان اجبت حمنة ، اجلستك فى مجلس ، لم تجلس فى مثله قط ، واصادتك صيدا لم تصد مثله قط . »

قال : « ياحمنة ، قد اجبتك الى ماسألتني ، وسآتي مع يحي غدا . »

فلما كان الغد ، ذهب المأمون ويحيى ظهرا الى دار حمنة . فأقبلت نحوهما بنفسها تستقبلهما . ومشت بهما الى بيت فى بستان عظيم ، قد حمل على اربعة اعمدة من الرخام . فدخلاه واذا فى صدر البيت اشعار غزلية منقوشة بالدر والجوهر ، وقد فرش بالفرش الارمني ، الموشى ، المنقوش باللآلىء . وفى جنباته مطارح الديباج الاخضر المحشوة بالريش . وكانت روائح المسك والعنبر ، والند والعود ، الموضوعة في اوان ذهبية فضية ، تفوح ، فيعبق ارجها . فدهش المأمون لجمال البيت وحسنه . فاستراحا . ثم اخرجتهما الى ميادين أنشئت حول البيت ، فيها انواع الرياحين من ورد وسوسن وبنفسج ، واذا بمائدة قد نصبت ، وعليها انواع المآكل الفريدة . فجلسوا يأكلون . واعجب المأمون فقال : والله ماطعمت مثل هذا الطعام قط !

ثم امرت بنوادر الفاكهة ، فحملت من البستان ، واقبلت جاريتان عليهما جباب الوشي المنسوج بالذهب ، وعلى رأسيهما تاجان مكللان بالجوهر . فجلستا تضربان وتغنيان . فانتشى المأمون ، وصاح : هذه هي الجنة !

فلما طربا قال يحيى : ياامير المؤمنين ، الا نطوف في البستان المجاور ؟

فقاما ومعهما حمنة . وكانت حمنة قد زينت هذا البستان بأحسن ماتقدر عليه ،وحملت اليه الاشجار منجميع الاقطار، ووشته بازاهير شتى ، واعاشيب مختلفات . واتخذت فيه الوانا من الطيور كالهزاز ، والعنادل ، والشحارير ، والقماري ، وتبخترت فى جنباته الطواويس .. فأخذوا يستروحون أرج الزهر ، ويمشون هونا فى حواشي البستان ، ويتمتعون بجمال دجلة . فقالت حمنة : ألا تصيد ياأمير المؤمنين ؟

قال : بلى !

وانفتل مع يحيى الى الصيد . وما كادا يتوغلان فى البستان ليصيدا الطيور ، حتى ظهرت فجأة مائة وصيفة من وصيفاتها الحسان ، بطرر واحدة ، وشعور واحدة ، لابسات ثيابا موشاة كالازاهير . وفى اوساطهن مناطق الذهب ، فانطلقن ... كالعصافير بين الاشجار . واخذن يقطفن النور ويتضاربن بالرياحين ، ويرسلن الضحكات . فشده المأمون وزاغ بصره ، واعجب بما رأى . وهم يحيى ، قاضي القضاة ، ان يلحق بهن

ففررن منه ، وعدون من هنا وهناك ، يختبئن تارة ويظهرن تارة ، فى ظلال الكرم المعرش بين الرمان والريحان !

وفتن المأمون بذوق حمنة ، وظرفها ، وبراعتها ، وبلوغها فى التنسيق والترتيب الغاية فأمهرها من ساعته الف الف دينار ، واقطعها مائة من منتخبات الضياع ، واضحت زوجا له (١) .

هذيهي الوليمة كماوردت. سقتها لتروا مافيهامن البراعة والظرافة والذوق. ولكني احسب ان هناك ماهو اروعواحلى.

هناك الحفلة التي اقامها المتوكل على الله لاعذار « طهور » ابنه المعتز . والمعتز كان محببا الى ابيه للطفه وفرط جماله . وقد اقام المتوكل هذا الطهور فى قصر اسمه بركوأرا . وهذه كلمة فارسية معناها ، على ماقيل لي ، قصر الهناءة . وكان من احسن ابنية المتوكل واجلها . بلغت النفقة عليه عشرين مليون درهم . فكانت حفلة الاعذار نادرة ، اقيمت فى ايوان القصر ، وكان طوله مائة ذراع اي مايقرب من خمسة وسبعين مترا ، وعرضه خمسون . فأمر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان ان يلتمس فى خزائن الفرش ، بساطا لهذا الايوان يكون بطوله وعرضه . فلم يوجد فى مكان الا فيما أخذ من امتعة

(١) من عيون التواريخ لابن شاكر (مخطوطة الظاهرية) خلافة المأمون

هشام بن عبد الملك الاموي. وكان بساطا من الحرير والذهب.
قوم بعشرة آلاف دينار . فمد فى الايوان . ونصب للخليفة فى صدره سرير يرى الناس منه . ومد بين يديه اربعة الاف مرفع ذهب مرصعة بالجوهر ، فيها صور شتى من العنبر والمسك . وخصص لكل من المدعوين من الامراء ، والقواد ، والقضاة ، والشعراء ، والندماء ، مكان . ووقف فى صحن الدار امام الايوان ، اربع مائة جارية . ونثر فى الايوان ، وفى صحن الدار خمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . فكان منظر الجواري الحسان ، والبساط الحرير الرفاف ، والنرجسات المحدقات كالعيون الفواتر ، والبنفسجات الدقاق اللطاف ، من أبهج المناظر وابهاها . وفى هذا كله من الذوق كثير .

وحمل التفاح من الشام الى بغداد لهذا الاعذار . فوضع فى صحن الدار فى ألف سلة من خيزران ، هو والليمون والأترج .

واقبل الناس . فجاء الامراء ، كأولاد الرشيد ، والمأمون والمعتصم . وتبعهم القضاة والقواد . ثم جاء الندماء ، وكان فيهم ، ابن المنجم ، وابنا حمدون . ثم اقبل المغنون والزامرون والدفافون ، كعمر بن بانة ، وأبي حشيشة الطنبوري ، وزنام الزامر ، وابن الحفصي . وأقبلت المغنيات لابسات متزينات ، وفيهن بدعة التي شريت بالاف الدنانير .

وامتلأ الايوان بالاشراف والكتاب والناس فأكلوا ماكل

غريبة . وكان امام كل رجل قفة صغيرة . فكان الخدم يطوفون فيملؤونها بالدراهم والدنانير . فيأخذها الرجل ، ويضعها فى كمه أو جيبه ، وكلما فرغت ، ملأها الخدم . فكان اذا أثقل الواحد منهم مااجتمع فى كمه ، اخرجه الى غلمانه ، فدفعه اليهم ، خارج القصر ، وعاد الى مجلسه يملأ جيبه وكمه مرة اخرى ، حتى اذا انصرف ، اعطى ثلاثة أثواب ، وحمل على فرس او برذون الى داره .

واجتمع الجواري والخدم ، من البيض والسود ، والغلمان ، والقهارمة ، بعد انتهاء الوليمة ، فنثر عليهم عشرون مليون درهم . ثم اعتق المتوكل آلف عبد ، ووهب قصر الهناءة للمعتز وانتقل آلى الجعفري ، وكان ماوصل حرملة المزين ، ثمانون الف دينار ، سوى المصاغات والخواتيم والجواهر .

وكان ما انفق على هذا الاعذار ستة وثمانون مليون دينار !

وقد كانوا يقولون : « ان زفاف الرشيد هو دعوة الاسلام » فلما شهدوا زفاف المأمون قالوا : « بل هذه دعوة الاسلام » ، ولما رأوا طهور المعتز قالوا : « هذه دعوة لم يكن قبلها مثلها ولن يكون ! »

على انه ان لم يقلدوا مافعل المتوكل فى هذا الاعذار ، فقد اخترعوا الوانا أخرى من المفاتن ، فاقت وليمة المتوكل . فقد كانوا كلما ازداد بهم الترف ، واستفاضت الثروة ، اوجدوا أشياء لاتخطر على البال ، ولم نر أو نسمع بمثلها .

وقد يأتي بهذا من ليس بخليفة أو وزير ، بل متول من المتولين على الدواوين . فقد كان للعباس بن الحسين دار يجتمع فيها دجلة والفرات . فأنتهى خبرها الى أحمد بن بوية ، فأحب النظـن اليها فدعاه العباس واولـم لـه .

عمد العباس بادىء بدء لداره ، فجدد فرشهـا كلـه ، واتى بالديباج السندسي المنسوج لهـا بقدر طولها وعرضها ، المثقل بالذهب . واتى بالارمني الرفيع وبالخز المرقوم ، وغير ذلـك مـن الفـرش .

فلما فرغ من ذلك ، دعـا احمد بن بويه . وكان الوقت زمن النيروز الفارسي وقد زادت المياه ، وتكامل النبت ، ونـور الشجر ، وطلع الثمر . وكان اصطنع فى بستانه المحيط بالدار على البركة العظيمة التي يجتمع فيها دجلة والفرات ، قصـرا مرتفعا ذا أربع طبقات من السكر . وكان لهذه الطبقات نوافذ وابواب ، وكانت هذه الابواب تنفتح فتخرج منها صور مـن السكر على هيئة الجواري والغلمان ، بصنوف الملاهي ، فـي احسن الملابس . فكانت تدخل وتخرج ، وتـذهب وتجيء . فلا يشك الناظر انه قصر صحيح . وجعل العباس على شرفات الطبقات صورا من أنواع الطير والوحش ، كالعنادل والهزار ، والسباع والفيلة ، كل ذلـك من السكر المموه بصنوف الاصباغ والنقوش والذهب ... وكل طائر او حيوان يرسل صوتـا مثل صوته . فلما كان يوم الدعوة ، امر بان يجمع مافي بغداد

من الورد . وجعل فى اسفل دجلة حبلا كالسد . واتى بالورد فنثره فوق دجلة ، حتى غمر صفحته اميالا . واقبل احمـد ابن بويه فى سميرية يشق الورد ، فلم ير احسن من ذلك المنظر .

وتلقى العباس ، احمد بن بويه وبنيه ، فطاف بهم فى جنبات البستان . فاعجبوا بقصر السكر اي اعجاب . ثـم اسمعهم المطربين والمسمعات ، ثم اطعمهم مآكل تفوق كل وصف .

ولما اراد احمد بن بويه ان ينصرف ، قدم له العباس آنيتين من ذهب وفضه فى الاولى الف دينار ، وفى الثانية الف درهم . ثم فرق الاموال على القواد ، ثم امر بنهب قصر السكر فنهبه الحشم والغلمان .

... فتلك صور ضاحكة لافراح بغداد وولائمها ، ترف فيها الحضارة ، ويطل البذخ ، وتتجلى الفتنة .

- ٤ -

الورد فى حياة الخلفاء

الورد جمال الربيع ومنبع الطيب وحلية الرعابيب . غرم به الشعراء فجعلوه أبدان العذارى ، وخدود الملاح ، وانفاس الحبيب ، واتخذه الاوائل من النصارى رمزا ينثرونه مع الزهر على قبور الشهداء . وهو الى ذلك مهوى الانفس الرقيقة : تهش له الروح ويهفو آلى مرآه القلب ، فان لونه الصافي ، وطيبه المسكر ، ورقته الناعمة ، لما يذهب الشجن ، ويهز الحس ، ويناغى القلوب .

لاجرم ان الفتنة بالورد لاتصدر الا عن وفرة الشعور ، ورهافة الذوق ، وغضوضة الطبع . فاذا أتيح لمن أوتي ذلك مباهج النعيم ، ولذاذات الترف ، كان للورد عنده المحل الاول والشهوة الكبرى ، وتعجل بالتمتع به لان ايامه ، كما يقولون ، قصار كأيام الهوى ، ونفحه مسكر كفماغم الحب .

والباحث فى تاريخ العصر العباسي يجد ان الترف والنعيم هذبا النفوس وارهفا الاحساس ، وان اختلاط العرب بالفرس الذين كانوا يحتفلون بالورد ، ويقيمون له الاعياد ــ رفعهم الى الاعجاب به وتمجيده .

ذكره الشعراء فمدحوه تارة وهجوه أخرى . وأتخذته القيان حلية يزين به قدودهن ، ويعطرن بعطره اجسامهن ، ويفرحن به احبتهن والافهن (١) ونثره العشاق على مفارش الحب واتخذوه رسائل الحب الى الحب ، كأنه كلمات حلوة ناعمة فيها الشوق والروح والحنين . وحفل به بعض الخلفاء فكانوا يفرشون مجالسهم بفرش كالورد او ينثرونه فى الفضاء والهواء ، او يشربون على منظره وارجه .

وقد الفوا عن الورد الرسائل الحسان : فمنها كتاب « العقد بفضل الورد » لمحمد بن احمد الوشاء (٢) وكتاب « المفاخرة بين الورد والنرجس » لاحمد بن ابي طاهر (٣) وكتاب « الورد » للثعالبي ، وكتاب « الانوار والثمار في الورد والنرجس وجميع الانوار ، وما ورد فيها من الاشعار . وما جاء فيها من الآثار والاخبار » لمحمد بن عمران المرزباني وغيرها .

والبحث يطول اذا فصلنا ، ولذا فسنقصر كلامنا على ما أثر عن الخلفاء العباسيين فى شغفهم بالورد وولوعهم به ، فان في ذلك طرافة ومتعة ، وتبيانا لناحية لم يطرقها الباحثون ، وحدها ، بالتفصيل .

---

(١) انظر : عشق القيان للجاحظ
(٢) الموشى ، ج ٢ ص ١٣٨
(٣) معجم الأدباء (مرغوليوث) ج ١ ، ١٥٥

ذكر الطبري (١) ان يعقوب بن داود وزير المهدي ، دخل على الخليفة يوما ، فاذا هو فى مجلس مفروش بفرش مورد يشرف على بستان قد اكتسى بالاوراد والازهار . فكان ذلك كله موردا يشبه فرش المجلس الذي كان فيه . قال يعقوب : فما رأيت احسن منه ، ثم دخلت جارية مارأيت احسن منها ولا اشطر قواما ولا احسن اعتدالا ، وعليها ثياب من نحو لون الورد !

فهذا التوافق بين لون الفرش ولون الزهر ، ولون الثياب غاية فى الذوق والفن ، ثم انه فى اختيار لون الورد البهيج لأولئك جميعا رهافة حس ونعومة طبع ، قد تصادفهما في الغرب ، فى هذه الايام .

وبلغت فتنة الرشيد بالورد مبلغا شديدا . دخل عليه ابراهيم الموصلي امير الغناء يوما وعنده جارية أديبة شاعرة ، وبين يديه طبق ورد . فقال الرشيد : ياابا اسحاق ، اما ترى حسن هذا الورد ونضارته ؟

فقلت : لزيك ياامير المؤمنين احسن منه !

فقال : قل فيه شيئا !

فقلت :

كأنه خد موموق يقبله   فم الحبيب، وقد ابدى به خجلا

---

(١) تاريخ الطبري ، أخبار المهدي

فقالت الجارية فى الحال :

كأنه لون خدي حين تلمسني   كف الرشيد لأمر يوجب الخجلا

فسر الرشيد سرورا عظيما ، وقال : قم ياابا اسحاق ... فقد حركتني هذه الجارية بخلابة كلامها وحسن جوابها ! (١).

وجميل جدا ان يكون الورد حديث الخليفة وندمائه ، ومثير لذته وطربه ومهوى نفسه وروحه . ولا يتاح هذا الا لمن هذبته الحضارة ، وفتنه الجمال فى كل صورة من صوره حتى فى الورد العطر البهيج .

وكان المأمون معجبا بالورد يحبه ويهواه . رفع اليه مرة ان حائكا يعمل السنة كلها لايتعطل فى عيد ولا جمعة . فاذا ظهر الورد طوى عمله ، وغرد بصوت عال :

طاب الزمان ، وجاء الورد فاصطبحوا

ما دام للورد ازهار ونوار

فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى :

اشرب على الورد من حمراء صافية

شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزالون فى صبوح وغبوق مابقيت وردة . فاذا انقضى الورد عاد الى عمله وغرد :

فان يبقني ربي الى الورد اصطبح

وأن مت ، والهفي على الورد والخمر !

---

(١) ثمرات الأوراق ج ١ ، ٢٤

فقال المأمون : لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغي ان نعينه على هذه المروءة . فأمر ان يدفع له فى كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن الورد . (١)

كان المأمون الى جانب سعة عقله وغزارة علمه ، حلو النفس رقيق الحاشية . ولا شيء ادل على هذا من الحادثة التي ذكرناها فلقد عد حب الورد والميل اليه والشراب على منظره وطيبه من المروءة ، واعان صاحب هذه المروءة ليمتع نفسه بالورد وبالخمر ماشاء له طبعه المرهف وذوقه الرقيق .

ذكر الاتليدي ان المأمون شرب يوما ومعه يحيى بن أكثم . فمال الساقي على يحيى حتى وقع سكران . فأمر المأمون ان يلقي عليه الورد والريحان حتى يدفن فيه كأنه ميت . وصنع بيتين من الشعر ، وقال لمغنيته : خذي العود وغني على رأسه ، فغنت :

ناديته وهو حي لاحراك به   مزمل فى ثياب من رياحين

فقلت « قم » ، قال « رجلي لاتطاوعني »
فقلت « خذ » قال « كفي لاتواتيني » (٢)

وكان منظر الورد ، وما قيل فى الورد ، كانا يثيران احساس المأمون فيجود على حامل الورد او قائل الشعر فيه ، او مغنيه

---

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ٩٣
(٢) اعلام الناس للاتليدي ، ص ٩٨

بالمال الكثير ، جود من لايخشى عاقبة ولا يحسب حسابا .
قال اسحاق بن ابراهيم :

دخلت يوما على المأمون فى زمن الورد ، فقال لي : ياابا اسحاق !هل قلت فى الورد شيئا ؟

قلت : أقول بسعادة أمير المؤمنين !

وفكرت ساعة فلم يفتح علي بشيء . فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهرا متفكرا فلم يفتح علي بشيء . فلما اصبحت غدوت الى دار الخلافة . واذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ، ومعه سبع وردات ، على صينية فضة ، ينتظر الاذن فى الدخول بها عليه . فسألته المهلة بها قليلا ، فامتنع . فسألته ثانيةوقلت : لك بكل وردة دينار ان أمهلت !

فأجابني الى ذلك ، فدفعت له سبعة دنانير ، واحببت الا يصل اليه الورد قبل وصول الشعر . وخرجت اقصد الازقة لعلي اسمع شيئا من احد او ينبعث خاطري ولو ببيت واحد ، فبينما انا كذلك ، واذا برجل يغربل التراب وهو ينشد :

اشرب على ورد الخدود فانه   ازهى وابهى ، فالصبوح يطيب
ماالورد احسن من توردوجنة   حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه   ذهب بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي ، ودخلت مسجدا بالقرب منه فطلبته وسألته ان يمليها علي . فاعتل وقال : ان اردت فأعطني بكل بيت عشرة دنانير !

فدفعتها له ، واستمليتها منه ، وعدت ، ودخلت انا وغـلام الفضل . واذا بالمأمون يشرب من ورأء الستار ، فلما جسست العود قال لجواريه : أسكتن فقد جاء اسحق !

فقدمت ذلك الورد بين يديه ، وانشدت الابيات ، فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستار . ثم اخرج الى بدرة فيهـا عشرة آلاف درهم . فاعدت الابيات فأخرج الى بدرة ثانية ، فاعدت الثالثة ، فاخرج بدرة ثالثة . فخرج الى خادم وقال : يقول لك أمير المؤمنين : لو دمت على انشادك ، لدمنا علـى البدرة ، ولو الى الليل ... (١)

هذا ماكان عليه المأمون ، امـا المتوكـل فكان اشد الخلفاء العباسيين شغفا بالورد . والحق ان حياته الخاصة تدل علـى رقة ذوقه وطرافة لهوه ، وكأنه كان فنانا شاعرا ، وان لـم يؤثر عنه قول الشعر .

وقد بلغ من فتنته بالورد انه آستأثر به وحده وحرمه على الناس . وكان يلبس فى زمن الورد الثياب الحمر ، ويأمـر بالفرش الاحمر كالورد ، وكان الورد لايرى الا فى مجلسه ، وكان يقـول : « انا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكـل منـا اولى بصاحبه » (٢)

---

(١) اعلام الناس ، ص ١٠٥
(٢) مطالع البدور ، ج ١ ، ٩٣

ووجدنا فى كتاب الديارات للشابشتي ، وكنا حققناه وعلقنا عليه ، أن المتوكـل شرب فى بركـوارا . وهـو قصـر مـن قصوره . فقال لندمائه « ارأيتم ان لم تكن ايام الورد ، لانعمل نحن شاذ كلي ؟ »

(والشاذ كلي عيد يمهرجون فيه ميلاد الـورد)

فقالوا : ياامير المؤمنين : لايكون الشاذكلي الا بالورد !

فقال : بلى . ادعوا الي عبيد الله بن يحيى !

فحضر ، فقال له : تقدم بان تضرب لي دراهم فى كل درهـم حبتان ! (من فضة)

فتقدم عبيد الله فى ضربها فضربت ، وعرفه الخبر ، فقال : اصبغ منها الحمرة والصفرة والسواد ، وأتـرك بعضهـا علـى حالـه !

ثم تقدم الى الخدم والحاشية ، وكانوا سبعمائة ، بان يعـد كل واحد منهم قباء جديدا وقلنسوة على خلاف لون الـورد وقلنسوته ، ففعلوا . ثم عمد آلى يوم تحركت فيـه الريح فنصب له قبة لها اربعون بابا فانبطح فيها ، والندماء حوله . ولبس الخدم الكسوة التي اعدها ، وامر بنثر الدراهم كمـا ينثر الورد ، اولا اولا . فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين آلسماء والآرض كما يقف الورد .

قال : « فكان ذلك اليوم من أحسن أيام المتوكل واظرفها »

وكان الورد ،الى ذلك ،يبعث الشعرفى صدر بعض الخلفاء. ذُكروا ان الواثق كانلايشرب الا على الورد والريحان. وذكروا ان خادمه مهج ناوله ذات يوم وردا وهو يشرب فأنشد :

حياك بالنرجس والورد	معتدل القامة والقد
فألهبت عيناه نار الهوى	وزاد فى اللوعة والوجد
املت بالملك له قربة	فصار ملكي سبب البعد
ورنحته سكرات الهوى	فمال بالوصل الى الصد
ان سئل البذل ثنى عطفه	واسبل الدمع على الخد
مولى تشكى الظلم من عبده	فأنصفوا المولى من العبد

فأجمعوا انه ليس لاحد من الخلفاء مثل هذه الابيات في الجودة . (١)

***

فهذه طرف عن شغف بعض الخلفاء العباسيين بالورد ، وليس هذا محل الاستقصاء ، وهي تدل على مبلغ الحضارة والرقي ، وعلى رهافة الذوق وحب الازهار ، سقتها لما فيها من لذة وطرافة وجمال .

(١) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٣٧

- ٥ -

الغلمان في حياة الخلفاء

نحن نعلم أن النساء اوتين حظا ومكانة فى قصور الخلفاء العباسيين. واوتين ايضا حظا ومكانة فى قلوب الخلفاء انفسهم. فحكمن وعبثن وسقين اولئك الخلفاء الهوى ، واذقنهم من طيبات اللذائذ ماخلب عقولهم وفتنهم . وعرفت اسماء بعض هؤلاء النساء ، فكان لها رنين وكان لها تاريخ .

فسحر وضياء ، وذات الخال وهيلانة محبوبات الرشيد . وعريب محبوبة المأمون ، ومتيم محبوبة المعتصم ، وفريدة عشيقة الواثق ، ودريرة محبوبة المعتضد وغيرهن من الحسناوات الفاتنات ، كان لهن اثر فى قلوب الخلفاء مايعادله أثر ، وكان لهن فى تاريخ القصور شأن كبير قد لا نعرف عنه الا القليل .

ولقد انصرف نفر من الخلفاء الى النساء ووجدوا فيهن مايشتهون ، ولكن آخرين انصرفوا الى الغلمان او جمعوا بين النساء والغلمان معا .

ولعل الامين كان اول من عني بالغلمان . وهو الذي قدمهم

وآثرهم ورفع منازلهم . وصدف عن الجواري الحسان . فلما رأت ام جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن والبستهن الاقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه . فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن ، وابرزهن للناس من العامة والخاصة فاتخذ الناس الجواري المطمومات ، والبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات . (١)

وكان ولوع الامين بالغلمان ظاهرا ، وكانت احاديث الغلمان تجرى فى مجلس الامين نفسه ، وكان الامين من احسن خلق الله ، لم ير ذكر ولا انثى مثله جمالا وحسنا . فسأل ابا نواس ليلة ، وقد نظر اليه نظرة ذي علق : هل تشتهيني ؟

فقال ابو نواس : معاذ الله ! ومن يحدث نفسه بمثل ذلك ؟

فقال : اقسمت عليك بحياتي الا اخبرتني !

فقال : ياسيدي ان الاموات يشتهونك ، فكيف الاحياء ؟ (٢)

وهكذا لم يجر الحديث حول اشتهاء الغلمان ، بل صار الخليفة نفسه موضع الريبة ومحط الشهوة !

---

(١) مروج الذهب ، ج ٨ ، ٢٩٩ (اوروبة)

(٢) ثمار القلوب ، ص ١٤٨

وأحب المأمون الغلمان والولدان فاتخذهم بدلا من النساء. ويذكر الثعالبي ان الفضل فى ذلك يعود الى يحيى بن اكثم . فهو الذي زين للمأمون اللواط وغرس فى قلبه محاسن الغلمان وفضائلهم وخصائصهم . وما ندري مبلغ هذا الخبر من الصحة ، أكان أعداء يحيى هم الذين نسبوا ذلك اليه ام انه كان يلوط الغلمان حقا . يقول الثعالبي : فصدر المأمون عن رأيه .

وذكر ان المأمون نظر يوما الى يحيى فى مجلسه وهو يحد النظر الى ابن اخيه الواثق ، وهو اذ ذاك امرد تأكله العين . فتبسم اليه وقال : ياابا محمد ، حوالينا ولا علينا !

ومن الاحاديث الطريفة ماجرى بين المأمون ويحيى ذات ليلة ، على المطايبة والمداعبة والمجاراة فى ميدان الغلمان . وكان مترف غلام المأمون حاضرا يسمع اليهما ، وهو الذي حكى هذه القصة . قال :

قال المأمون : يا ابا محمد ! اخبرني عن اظرف غلام مر بك !

قال : نعم ياامير المؤمنين ، احتكم الى غلام فى نهاية الملاحة والظرف واللباقة ، فأخذته عيني وتعلقه قلبي . فلم افصل فى الحكم بينه وبين خصمه أيثارا مني للقائه ومعاودته اياي فى حكومته . فدخل الي حين خلوة ، ومثله لايحجب عني . فلما وصل الي قال : ايها القاضي ! اعدني على خصمي !

فقلت له : ومن يعدني على عينيك يابني ؟

قال : شفتي !

وأدناه مني ، فلما شممت الخمر من فيه وبلغت حدا من القبل ، قلت له : يابني ! مابال شفتيك متشققتين ؟

فقال : احلى مايكون التين اذا تشقق !

قلت له ، ويدي فى ثيابه : يابني ماأنحفك !

فقال : كلما دق قصب السكر كان احلى !

فضحك المأمون ، ووقع له بمائتي دينار ، وقال اوصلها اليه ولو على اجنحة الطير . وكان الغلام قد التحى ، وكان يحيى يعرف منزله فأوصلها اليه (١) .

فلولا شغف المأمون بالغلمان لما لذه حديث كهذا ، ولااستمع اليه . ولعل يحيى كان يرى ان اللواط بالغلام المملوك لايوجب الحد ، فأغرى المأمون به . وقد كان فى الفقهاء من يرى هذا المرأي . (٢)

واقتدى المعتصم بالمأمون فى الولوع بالغلمان واتيانهم حتى اشتهر بهم ، وملك ثمانية آلاف منهم . (٣)

وكان للمتوكل غلام اسمه شاهك ، وكان يعشقه الفتح بن خاقان ويقول فيه الشعر . وكان يسعى بينه وبين الغلام

---

(١) ثمار القلوب ، ص ١٢٣ — ١٢٤
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٣٤
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٣

ابو عبد الله بن حمدون ، فعرف المتوكل الخبر فاستدعى ابا عبد الله وقال له : انما اردتك وادنيتك لتنادمني لا لتقود على غلماني . ثم نفاه . (١)

وكان عند المعتمد بدر الجلنار وكان يحبه ويؤثره . (٢)

وكان المعتز يحب يونس بن بغا ، فلم يكن يفارقه ولا يصبر عنه ، وله فيه اشعار كثيرة ، وكان يشرب على وجهه . وهو القائل فيه من قصيدة :

تغيب فلا افرح   فليتك لاتبرح

وكان يأمر له بكل جليل من الخزائن . (٣)

تلك أخبار موجزة عن ولع بعض الخلفاء بالغلمان . وما ندري سبب هذا التحول عن النساء الى الولدان . ولعل هذا الشذوذ الجنسي آت عن كثرة النساء فى القصور ، فملهن الخلفاء ومالوا الى الولدان .

---

(١) الديارات ، ص ٤ — ٥
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ — وانظر هناك أخباره بالتفصيل

- ٦ -

جواهر الخلفاء العباسيين

كان لرفيف الحضارة ايام العباسيين أثر كبير فى رقي العواطف والاذواق ، والاندفاع نحو الترف والبذخ . ولعل الجواهر والخواتم ، والتيجان والوشح المرصعة ، والقلانس المجوهرة ، والقضبان العاجية الثمينة ، والاعمدة المذهبة ، كانت أكبر مظهر من مظاهر ترف الخلفاء وبذخهم ، ثم تعدوا ذلك الى ماهو أبعد وأروع ، فزينوا الحيطان والسقوف والابواب والرواشن بالدر وحلوها بمثل حليهم . (١)

وكانت الجواهر منذ الزمن البعيد ، قنية للاكاسرة يلتقطونها من كل مكان ، ويرسلون فى اثرها الرسل ويجودون بالمال . وكانت هذه الجواهر مجتمعة من لدن أردشير بن بابك يرثها عنه القائمون بعده ، كابر عن كابر . حتى اذا جاء الاسلام ، وقوض عرش كسرى ، القت فارس الى الدولة العربية جواهرها وأفلاذها . على ان هذه الكنوز لم تجد

(١) الجماهر فى معرفة الجواهر للبيروني ، ص ٣٢ (حيدر آباد ـ كرنكو)

عند الخلفاء الراشدين هوى ، ولم يكن لهم ميل الى هذه الاعراض الدنيوية ، فصدفوا عنها ، وصرفوها الى سائر المسلمين . ولم يكن لبني امية شغف بالغ بأشباه هذه الامور ، فقد كانت دولتهم عربية لم يترعن فيها غير نفر او نفرين . فاتسعت الجواهر المذكورة فى ايامهم ، وامتلأت بها خزائنهم (١) وتناقلها الناس ، حتى قالوا انه كان يعمل منها اوان ، ولهذا قال الشافعي فى كتاب حرملة « لايجوز استعمال اواني الياقوت والبلور لان قيمتها تفوق قيمة الذهب » (٢) واوضح انه لو لم يكن هناك اوان من هذا الضرب لما قال الشافعي قوله . فلما فاجأتهم الدولة العباسية وجدوا خيرا كثيرا وجوهرا وافرا ، ولم ينتفعوا الا بالقليل منه فقد حدث بعض اهل مروان « لم يكن لنا فى هربنا شيء أنفع من الجوهر الخفيف الثمن الذي لايجاوز قيمته الخمسة دنانير .. » (٣)

***

ولقد شغف بنو العباس بالجوهر شغفا كبيرا . فقد ذكر ابن خلدون ان السفاح والمنصور اتخذوا الاسرة الذهبية ، المرصعة بالجوهر ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكللة بالدر والياقوت . (٤)

(١) الجماهر ، ص ٥٧
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦
(٤) التمدن الاسلامي ، عن ابن خلدون ، ج ٥ ، ١٠٦

وذكروا انه كان لهشام بن عبد الملك درة اسمها « الـدرة اليتيمة » . أتى بهايوما وعنده امرأته عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية ، وكانت مفرطة السمن ، لم تكن تستغني فى الحركة عن معونة نفر . فقال لها هشام : أن قمت بنفسك من غير استعانة بأحـد فلك هذه الدرة !

فزاولت القيام بشدة ومشقة ، ومـا تـم نهوضها حتى خرت على وجهها وسال الدم من انفها ، فغسلها هشـام واعطاها الدرة . وكانت ثلاثة مثاقيل ، حائزة جميع محاسن الصفات ، مدحرجة نقية رطبة من كثرة الماء ، ولذلك سميت اليتيمة . فلما انقضت دولة بني امية ، وانتدب عبد الله بن علي لبيع ودائع مروان بن محمد ، غمز اليه بان عند عبـدة الدرة اليتيمة وقرطان لها بقيا لديها . فاحضرها وطالبهـا بذلك ، فسلمت ذلك اليه . فقال لها : اختاري لـك موضعا احسن لـك فيـه !

فسمت موضعا بالشـام ، فسيرهـا اليه . ثم خـاف ان يطلع السفاح على ذلك ويستخبرها ، فأتبعها عبدا ، حتى عدل بها عن الطريق وذبحها . (١)

وفعلة عبد الله بن علي هذه ، غاية فى التوحش والغلظة والـدنـاءة .

---

(١) الجماهر ، ص ١٥٢ —وانظر نخب الذخائر لابن الاكفاني (كرملي) ص٣٥

وكان مما اخذ منها بدنة مجوهرة كانت عندها . ذكـر الشابشتي فى كتابه « الديارات » ان المهدي لمـا زوج ابنـه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه أستعد لها مالم يستعد لامرأة قبلها : من الآلة وصناديق الجوهروالحلى والتيجان والاكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب ، وأعطاهـا بدنة عبدة امرأة هشام . قال : ولم ير فى الاسلام مثلها ومثل الحب الذي كان فيهـا . وكان فى ظهرها وصدرها خطان من يـاقـوت أحمر ، وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله . (١) ويقـال ان المقومين لم يقفوا على قيمة هذا الدرع لنفاسته . (٢)

وذكر ابراهيم بن المهدي ان اباه اشترى فصا من ياقوت أحمر ، على اقصى النهاية النفاسة، بثلاثمئة الف دينار ،وكانت أكياسا — لـمـا نضد بعضها على بعض — كالجبل . وقدوهبه للهادي . (٣) ، وقيل بل الذي اشتراه هو المنصور بأربعين ألف دينار . (٤)

ثم صار الى الرشيد فقرنه الـى الخـاتم « الاسماعيل » الذي كان للمنصور . وكان منزمرد على وزن مثقالين يسمى « البحر » تشبيها لـه بخضرته . وكـان شراؤه بأربعـين ألـف دينار . (٥)

---

(١) الديارات ، ص ١٠٠
(٢) تحفة العروس ، ص ٣٦
(٣) الجماهر ، ص ٦١
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقى (شوالي) ص ٥٠٣
(٥) الجمـاهر ، ص ١٥٢

وكان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصا على اقتنائها . بعث بالصباح الجوهري ، جد الكندي ، الى صاحب سرنديب لابتياع جواهر من ناحيته . (١)

وكان ينثر الجوهر بغير حساب . وكان من جملة حظاياه واحدة لم ترزق جارية من الجمال مارزقته هي . وكان الرشيد اذا اتحفهن بشيء ردت هذه حصتها ، وهو يغتاظ من ذلك . فاتفق يوما انه نثر عليهن جواهر لها قيم عظام فالتقطنها ، ولم تمد تلك اليها يدا . ثم أحضر جواهر غيرها وخيرهن . فاخترن ، وقال لتلك : لم لاتختارين أسوة بصواحبك ؟ قالت : ان كان لي ما أختاره فسأفعل . وأخذت بيده ، وقالت له : هذا اختياري من جميع جواهر العالم . فأعجب الرشيد بها وسماها خالصة ، وفاقت سائرهن في الحظوة منه وفى الصلات والمواهب . (٢)

وذكر البيهقي انه اشترى للرشيد جوهر بمائتي الف دينار فوهبه لدنانير البرمكية . (٣)

ولم تكن زبيدة زوجه أقل منه عناية بالجواهر ، فقد كان لها سبحة من يواقيت رمانية كالبنادق (٤) ، وكان شراؤها خمسين الف دينار . وجرى بين الرشيد وبينها

(١) الجماهر ، ص ٦٣
(٢) الجماهر ، ص ٥٨
(٣) المحاسن والمساوىء ، ص ٥٤٤
(٤) الجماهر ، ص ٥٨

ذكر نزاهة عمارة بن حمزة وعلو همته . فقالت : « ان الاقدام الثابتة تزل عن مواطئها عند روائح المال ، فادع به وهب له سبحتي هذه ، فان ردها عرفنا نزاهته . » ففعل ، وخلا به فى أمر مهم ، ثم أتبعه السبحة فوضعها عمارة بين يديه بعد أن شكر بره . ولما قام تركها مكانها . فقالت زبيدة : قد انسيها ، فاتبعه خادما بها !

فرجع قائلا : « ان عمارة قد وهبها لي » . فاعطته زبيدة الف دينار وارتجعتها منه . (١)

وكان عند الرشيد قضيب زمرد اطول من ذراع ، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر لاقدر له نفاسة ، وقوم هذا الطائر على حدته بمائة الف دينار . وكان هذا القضيب هدية من بعض ملوك الهند . (٢)

وقد بلغ من اعجاب زبيدة بالدر انها أمرت ان يتخذ ثيابا لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب (٣) ثم ازداد شغفها به حتى انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها .

وقيل انها اشترت لعبد الله بن المخلوع قضيبا من زمرد

(١) الجماهر ص ١٥٦
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٣) الجماهر ص ٥٨

قدر ذراع بأربعة وثمانين ألف دينار ليلعب به يوم أعذاره . وكان على رأسه طائر من ياقوت احمر . (١)

اما المأمون فأخباره متناقضة ، تدل على شغفه بالجوهر تارة ، وتظهر نفوره منها احيانا . فقد ذكروا أنه لما قدم بغداد منصرفا من خراسان أهدى اليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم ير مثله . فأخذ المأمون يقلبه ويحوله من يد الى يد ويقول لجلسائه : مارأيت أحسن من هذا الفص . ثم حدثهم ان ابا مسلم سرح زياد بن صالح الى الصين ، فوجه اليه بفص وقع له من جهته الى أبي العباس السفاح ، فوهبه لعبد الله بن علي ، وصار منه الى المهدي ثم الى الرشيد . فبينما هو يرمي قوس جلاهق اذ بدر الفص من خاتمه وكر فى ذلك الموضع حواليه ، فلم يعثر له على أثر ، واغتم جدا . فاشترى له صاحب المصلى فصا عديم المثال بعشرين الف دينار ، وبعث به اليه ليسليه عنه ، فلما نظر اليه قال : واين هذا من فصي !

ثم قال المأمون : « لأضعن من قدر هذه الحجارة التي لامعنى لها » ، ثم رد الفص على الفضل . (٢)

وذكر ابن شاكر ان المأمون اعطى زوجه بوران ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشا كان الحصير منه

(١) الجماهر ، ص ٦٥
(٢) الجماهر ، ص ٦٥

منسوجا بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت . فكان بياض الدر يشرق على صفرة الذهب ، ونثر الحسن بن سهل على المأمون فى تلك الليلة ألف جوهرة . (١)

ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدا قيمته ألف الف درهم (٢) .

وقيل ان زبيدة لما دخلت على المأمون عند دخوله بغداد هنأته بالخلافة ، فأعجب بكلامها وحشا فاها درا . (٣)

وذكر أن المأمون كان يحب الواثق ويجتهد فى تخريجه ، وعادله فى السفر مرة . فأخذ الجمال فى الحدآء . واشفق المأمون ان يستيقظ الواثق من نومه. ولم يمكنه النداء بالجمال فقطع سلك سبحة من الدر ، واخذ يرميه بدرة بعد اخرى الى ان اصابه ، فالتفت اليه وأومأ اليه بالسكوت . ثم دل أحد الثقات بالغداة على الموضع فالتقطها من الطريق . (٤)

ولم يكن الامين باقل شغفا بالجوهر من أمه وأبيه ، حتى بلغ به ذلك الى انه كان يشرب باقداح من بلور كللت جوانبها بالجوهر الثمين . (٥)

(١) عيون التواريخ (مخطوطة الظاهرية) ج ٦ ، سنة ٢٠٤ هـ
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٣) عيون التواريخ ، سنة ٢٢٦
(٤) الجماهر ، ص ١٥٦
(٥) المحاسن والمساوىء ، ص ٣٦٢

وقوم الجوهر الذي سلم من النهب عند فتنة المأمون بألف ألف ألف ، ومائة ألف ، وستة عشر ألف درهم . (١)

اما المعتصم فقد ورث ماكان عند ابيه واخيه ، وقالوا انه لما قتل الافشين أخذ من داره أصناما محلاة بالذهب والجوهر . (٢)

وكانت هذه الجواهر تقع أحايين كثيرة فى أيدي الحاشية والوصائف ، وربما عادت الىخليفة آخرمرة أخرى . فذكروا ان المتوكل جلس يوما لهدايا النيروز ، فقدم اليه كل علق ثمين . فدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وكان يأنس به ، فقال : ماترى فى هذا اليوم ؟

قال جبريل : مثل خرباشات الشحاذين ! اذ ليس لها قدر . أقبل على مامعي !

ثم أخرج من كمه درج آبنوس مضبب بالذهب ، وفتحه عن حرير أخضر ، فانكشف عن ملعقة كبيرة من الجوهر لمع منها شهاب فوضعها بين يديه . فرأى المتوكل مالا عهد له بمثله . فقال : من أين لك هذا ؟

قال : من الناس الكرام .

ثم حدث انه صار الى ابيه من أم جعفر زبيدة فى ثلاث شكايات عالجها فيها بثلاث مائة ألف دينار . (٣) .

---

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٢) عيون التواريخ ، سنة ٢٢٦
(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار . وكانت له سبحة فيها مائة حبة جوهر ، وزن كل حبة مثقال ، اشتريت كل حبة منها بألف دينار . (١)

ودخل بختيشوع على المتوكل يوم مهرجان ، فقال : اين هديتك ؟

فقال : هديتي لم يملكها خليفة قبلك !

وأخرج ملعقة زبرجد توزن ثمانية مثاقيل .

وحكى عن أبيه جبريل انه قصد دنانير جارية يحيى بن خالد فوجدها تأكل رمانا بهذه الملعقة . فقالت له : خذ هذه الملعقة !

فأخذها ، ففرح المتوكل ، وأحضر عتابا الجوهري لتقويمها فقال « لاأعرف لهذه قيمة ! » (٢)

وكان الواثق يملك الدر الكثير . وحكى محمد بن بشير النديم انه دخل على الواثق فاذا هو فى دار مفروشة الارض والحيطان بالوشي المنسوج بالذهب على سرير مرصع بالجوهر ، والى جانبه جاريته فريدة ، وذكر ان الواثق اغضب

---

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٢) الجماهر ، ص ١٦٥ — وانظر نشوار المحاضرة للتنوخي ، ج ٢ ١٤٤ (مطبوعات مجمع دمشق)

فريدة يوما فاسترضاها بحق فيه عقد جوهر ماروي مثلـه لخليفة . (١)

ولا ندري ماكان يفعل المعتز بالجواهر لو طالت خلافته . على ان امه قبيحة — زوج المتوكل — كانت تجمع الجواهر وتدخرها ولكنها لم تنتفع بها في دين ولا دنيا . ولم تغث به ابنها حين طلب منه الاتراك خمسين الف دينار على ان يقتلوا صالح بن وصيف ويريحوه منه . فلاذ بأمه فشحت عليه وقالت : لامال عندي .

فلما قتل المعتز وجد لها صالح ثلاثة أسفاط فيها زمرد وجوهر وياقوت أحمر ، ماظن ان يقع مثله ويكون في ايدي العالم . وقوم هذا كله بألفي الف دينار . وقومت الاسفاط بألف ألف دينار . (٢)

ولما اشارت قبيحة هذه على ابنها المعتز بقتل اخيه المؤيد بعثت الى امه بسبحة در قيمتها اربعة آلاف دينار . وقالت لها : سبحي بها يا اختاه . فسحقتها في الهاون ، ولفتها في كاغد وردتها الى حاملتها وقالت لها : اقرئي عني اختي السلام وقولي لها : التسبيح لايذهب بحزازات الدماء . (٣)

وكان بعض الخلفاء يبتاعون المتاع والأثاث بالجواهر بدلا

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٣٢
(٢) الجماهر ، ص ٦٨
(٣) الجماهر ، ص ١٥٨

من الدنانير . فذكر ابن شاكر ان المستعين اشترى من المعتز كثيرا من المتاع والأثاث بما قيمته عشرة آلاف دينار وعشر حبات جوهر . (١)

ولما انتقلت الخلافة الى المقتدر كانت خزانة الدولة مترعة بالجواهر . ومن جملتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي قومت بمائة وعشرين الف دينار ، وغير ذلك . (٢) على ان المقتدر اضاع ماوصل اليه على النساء وبذرها فيهن . ولما احتشم وزيره العباس ورام اسكاته بالاشتراك في النهب وتلويثه بالخيانة انفذ اليه من الجواهر مايعظم مقداره تكرمة له . فردها العباس قائلا : « انها زينة الاسلام ، وعدة الخلافة ، وليس تفريقها بصواب . » (٣)

وكان لخالة المقتدر هذا فص يلقب « بورقة الآس » لانه كان على شكلها ، وزنه مثقال الا شعيرتان وشراؤه بستين الف درهم . (٤)

تلك لمح موجزات عن الجواهر التي وصلت الى بعض خلفاء بني العباس ، واذا اضفنا الى هذا تلك الجواهر التي كانوا يزينون بها قصورهم كقصر البرج الذي بناه المتوكل وقصر الثريا ، وقصور المقتدر بما فيها دار الشجرة ، وقصور سامراء ، ادركنا مبلغ الترف والبذخ اللذين رتع فيهما الخلفاء فكانا سببا في وهن ملكهم وأندثار حضارتهم .

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٤٨
(٢) الفخري ، ص ١٩١
(٣) الجماهر ، ص ٥٧
(٤) الجماهر ، ص ٥٧

-٧-

الخلفـاء العباسيون والهـدايا

درج الناس فى العصر العباسي على تقديم **الهدايا للخلفاء** . ونلاحظ ان هذه الهدايا كانت تقدم فى **النيروز والمهرجان** ، وفى الفصد ، وفي العودة من الحج . **هذا عدا الهدايا التي كـانت** تحملها الرسل الواردة على الخليفة **من الولاة والامراء ، او من** ملـوك الـروم .

اما الهدايا فى النيروز والمهرجان ، **فعادة فارسية اخذها** العرب عن الفرس منذ فجر العصر الاسلامي . **ويقول الجاحظ** انها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت **كذلك طول عهـد** الامويين حتى جاء عمر بن عبد العزيز **فأبطلها ، فلما دالت دولة** الامويين ، وقامت دولة العباسيين ، **عادت هذه العادة الـى** الناس ، وصارت فرضا عليهم **نحو الملوك** .

ويبين الجاحظ العلة فى تقديم **الهدايا فى النيروز والمهرجان** فيقـول : « وأن من حق الملك **هـدايا المهـرجان والنيروز ،** والعلة فى ذلك انهما فصلا السنة . **فالمهرجان دخول الشتاء** وفصل البرد ، والنيروز ايذانا بدخول **فصل الحر . ومـن**

حق الملك ان تهدى اليه الخاصة والعامة . والسنة فى ذلـك عندهم أن يهدي الرجل مايحب من ملكه اذا كان فى الطبقـة العالية ، فان كان يحب المسك أهدى مسكا لاغيره ، وان كـان يحب العنبر أهدى عنبرا ، وان كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثيابا ، وان كان من الشجعان والفرسان فالسنة ان يهدي ذهبا او فضة . وان كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات أو بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها فى بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط ابريسم ... ثم وجهها . وكان يهدي الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه ان يهدين الى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المرأة من نساء الملك ان كانت عندها جارية تعلم ان الملك يهواها ويسر بها ، ان تهديها اليه ، بأكمل حالاتها ، وأفضل زينتها ، واحسن هيأتها . فاذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك ان يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة ! » (١)

وعاد الجاحظ في المحاسن والاضداد ففصل ما أجمـل في التاج . قال : « وجعلوا شعارهم : كل يهدى على قـدره . فكان القواد يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الـذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامـات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملوحـة

---

(١) التاج ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩

بالذهب . والعظماء والاشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود . وربما اهدى الرجل الشريف سوطا . وكانت الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر ، والظراف قرب الحرير الصيني مملوءة ماء ورد ، والمقاتلة القسي والرماح والنشاب . وكانت نسوة الملك تهدي احداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والاخرى الدرة النفسية والجوهر الثمنية ، وفص خاتم ، وما لطف وخف . واصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك ، والصيارفة نقر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنانير . » (١)

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز (٢) مهما كان شأن الهدية صغرت ام كبرت ، كثرت ام قلت . فاذا اهدى أحدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبه تنوبه أو حق يلزمه ، فعليه ان يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه . (٣)

وذهب آدم متز الى ان المهرجان كان يمتاز خاصة بأن

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق

(٣) التاج ، ص ١٤٩

الرعية يهدون فيه الى السلطان . (١) ولا وجه لتمييز المهرجان من النيروز وقد رأيت أن الجاحظ جعلها سوآء . وذكر هدايا المهرجان وهدايا النيروز (٢) . وقد كان النيروز عيدا قوميا يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالقصائد والهدايا .

ولنر الان انموذجات من هذه الهدايا فى ضروبها واصنافها :

فلقد اهدى المنصور الوصائف من الرجال . حدث الفضل بن الربيع عن ابيه قال : كنت فى خمسين وصيفا اهدوا للمنصور ، ففرقنا فى خدمته . (٣)

واهدت جارية الى المهدي تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية وقال :

تفاحة من عند تفاحة   جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما أدري أبصرتها   يقظان أم ابصرتها فى الرقاد (٤)

ولما عشق ابو العتاهية عتبة ، جعل هديته الى المهدي وسيلة لوصالها . فقد ذكر المبرد ان أبا العتاهية استأذن فى ان يطلق له ان يهدي الى امير المؤمنين فى النيروز والمهرجان .

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٨٤

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١

(٣) الاغاني ، ج ٦ ، ٨

(٤) عيون الاخبار ج ٣ ، ٣٩

فأهدى له فى احدها برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ، قد كتب على حواشيه .

نفسي بشيء من الدنيا معلقة   الله ، والقائم المهدي يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني   فيهااحتقارك للدنيا وما فيها(١)

وحدث ابراهيم بن المهدي قال : كنت عند الرشيد، فأهديت له اطباق ومعها رقعة . فلما قراها استفزه الطرب . فقلت : ياأمير المؤمنين ماالذي أطربك ؟

قال : هذه هدية عبد الملك بن صالح .

ثم نبذ الى الرقعة فاذا فيها : « دخلت ياأمير المؤمنين بستانا أفادنيه كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد أينعت ثماره وفاكهته . فاخذت من كل شيء وصيرته فى اطباق القضبان ووجهته لامير المؤمنين ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من بركة عطائه . » (٢)

قلت : وما فى هذا مايقتضي هذا السرور ؟

قال : الا ترى الى ظرفه كيف قال القضبان ، فكنى به عن الخيزران اذ كان يجري به اسم امنا ؟

ثم كشف المنديل ، فاذا بعضها فوق بعض ، فى احدها فستق ، وفي الاخر بندق ، الى غير ذلك من الفاكهة . (٣)

(١) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ١٢٦
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٦
(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٨٠

واهدى احمد بن يوسف للمأمون ثوب وشي (١) ،واهدى اليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش، وكتب اليه : « هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطاف العبيد السادة ، وقد ارسلت الى امير المؤمنين طبق جذع فيه ميل . » (٢)

واهدى له عبد الله بن طاهر فرسا ، وكتب اليه : « قد بعثت الى أمير المؤمنين بفرس يلحق الارانب فى الصعدآء ، ويجاوز الظباء فى الاستوآء ويسبق فى الحدور جري الماء(٣)

وهدية الخيل كانت معروفة من قبل . فقد اهدى الحجاج الى عبد الملك فرسا (٤) واهدى عمرو بن العاص الى معاوية ثلاثين فرسا من سوابق خيل مصر . (٥)

ولما افضت الخلافة الى المتوكل اهدى اليه الناس على اقدارهم ، واهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف . وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد ادبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم ، وكانت تحسن كل مايحسنه علماء الناس . فحسن موقعها من المتوكل ، وحلت من قلبه محلا جليلا . (٦)

(١) وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ٣٠٥
(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ١١
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٠
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٩
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢١
(٦) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٩٥

وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه ألفا مثقال من عنبر . (١)

واهدى اليه خالد المهلبي فى يوم نيروز ثوب وشي منسوجا بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرعا مضاعفة وثوبا بغداديا فأعجبه حسنه ، ثم دعا به فلبسه وقال : يامهلبي أنما لبسته لاسرك به !

فقال : ياأمير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك ، فكيف وانت سيد الناس ؟ (٢)

وذكروا انه كان للمتوكل جارية اسمها شجرة الدر . وكان يميل اليها ميلا كبيرا ويفضلها على سائر حظاياه . فلما كان يوم المهرجان أهدى اليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن في ذلك . فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفى يدها قضيب ذهب فى راسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياه وقد سر بالهدية : « مافيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه ! » فحسدنها وعملن على قتلها بشيء سقينه لها فماتت . (٣)

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١

(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٦

والى جانب هذه الالوان من الهدايا كانوا يهدون الطين . قال الثعالبي : وكانوا يهدون طين نيسابور ، وهو طين الاكل لايوجد مثله فى الارض ، يحمل الى اداني البلاد واقاصيها ، ويتحف به الملوك ، وربما بيع الرطل منه بدينار . (١)

***

اما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا يهدون الجواري والصواني والاقداح والجامات البلور والشمامات والعنبر المسك .

فقد فصد الرشيد فأهدى أليه اليزيدي جام بلور ، وشمامات عالية ، وكتب اليه : ياأمير المؤمنين ، تفاءلت بالشرب بالجام بجمام النفس ودوام الانس ، والغالية للغلو فى السرور والازدياد من الحبور . (٢)

وافتصد المأمون مرة فأهدى أبيه ابراهيم بن المهدي جارية معها عود ، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية
كما كان معقوداً بمفرقك الملك (٣)

وفى مرة ثانية اهدت اليه « رباح » أترجة عنبر ، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر اعجب بهما ، فكافأها بمال كثير . (٤)

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٢٨

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٣) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٤) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

واقتصد المعتصم فأهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح ، اسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر أبيات شعر رقيق، فلما قرأه أمر بأحضار اسحق بن ابراهيم، وامره ان يجعل له لحنا ، وامر مسرورا باخـراجها مـن ورآء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الابيات حتى احكمتها شمائـل وغنت ، فكأن سقط الدر يتناثر مـن فيها . وأمـر لاسحق بمال ، وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار. (١)

واقتصد ابراهيم بن المهدي فأهدى اليه اسحق بن ابراهيم الموصلي صوتا من غنائه ، وارسل غلامه فغناه به . (٢)

وربما طلب الخليفة من خاصته ان يهدوه ، كما فعـل المتوكل . فقد افتصد ، فقال لخاصته وندمائه : أهدوا الي يوم فصدي . فاحتفل كل واحد منهم فى هديته .

واهدى اليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلهـا حسنا وظرفا وكمالا . فدخلت ومعها جام ذهب فى نهايـة الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيهـا تهنئته بالشفاء ، فاستظرف المتوكـل ذلـك واستحسنه . (٣)

ولعل الطف هدية أهديت فى يوم فصد ، هي هدية ابي

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٦٦
(٤) عيون الانباء ، ص ١٨١

دلف ، فقد افتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع أبو دلف ماأصاب فى السوق من الورد وارسله هدية له . (١) وقد اوردت هذا الخبر لطرافته ، رغم ان ابن طاهر ليس من الخلفاء .

***

امـا هدايا العمال والولاة والملوك للخلفاء فكثيرة . فكـان كل وال يتفنن بارسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان الى المعتمـد هـدية من جملتها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهـر ، وعشرون صندوقا على عشرة بغال ، فيها طرائف الصـين وغرائبها ، ومائة عود من مسك ، ومائة مـن عـود هندي ، واربعة آلاف درهم . (٢)

ولـما قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد مرسلا من خمارويه كان معه هدايا من العين عشرون حمـلا على بغال ، وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف ، وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بالسروج المحلاة ، ومعهم جـرار فضة ؛ وعليهم اقبية ديباج ، وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منهـا خمسة بذهب والباقي بفضة ، وزرافة . (٣)

وقد يرسل الى الخليفة كلغريب . ففي سنة ٢٩٩ وردت

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٥
(٣) المنتظم ، ج ٥ ، ١٣٨

من مصر هدايا منها كما ذكر الصولي تيس له ضرع يحلب اللبن .

ووردت رسل احمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة. ومناطق ذهب مرصعة وربعة ذهب مرصعة . (١)

ووردت هدايا ابن أبي الساج أربعماية دابة ، وثمانون ألف دينار ،وفرش أرمني لم يرمثله ، فى بساط طوله سبعون ذراعا فى عرض ستين ذراعا ، عمل فى عشر سنين . (٢)

وفى سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا جليلة من احمد بن هلال صاحب عمان ، وفيها انواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر وطائر اسود يتكلم بالفارسية والهندية ، أفصح من الببغاء ، وظباء سود . (٣)

وفى سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائي الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه . (٤)

***

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون الى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام توددا وتحببا . فقد اهدى ملك الروم الى

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ١١٠
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٤٥
(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٦٧

المأمون مائتي رطل مسك ، ومائتي جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الاسلام .

واهدت ملكة الفرنجة الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفا ، وخمسين رمحا ، وخمسين فرسا ، وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب ، وعشرين خادما صقليا حسنا ، وعشرة كلاب كبار لاتطيقها السباع ، وستة بازات ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير . (١)

وفى سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم الى الراضي . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا مارزقته ايها الاخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الادب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئا من الالطاف ، وهي اقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ، ومناديل ، وأشياء كثيرة فاخرة . (٢)

***

فهذه كلها ألوان من الهدايا ، فيها تبيان لهذه العادة الاجتماعية التي كان لها شأن فى العصر العباسي ، الحافل بالعجائب والغرائب .

(١) الذخائر والتحف (مخطوط)
(٢ المنتظم ، ج ٦ ، ٢٩٣

- ٨ -

مآكل الخلفاء العباسيين

لعل الملوك والخلفاء ، من اشد الناس حرصا على انتقاء مالذ من الطعام وطاب . فهم يتخيرون اللذ من كل شيء . ومـا عليهم ان اتعبوا غيرهم او انفقوا الاموال الطوال في سبيل ذلك . والخلفاء العباسيون ، كانوا يعنون بهذا الامر كل العناية ، وكانوا يحرصون على الا يفوتهم من لذائذ المآكل والثمار شيء . فكانت هذه اللذائذ تحمل من الاقطار الى قصورهم في بغداد ليتمتعوا بها . وكانوا يفرضون ان يحمل اليهم مع خراج كل بلد ماحسن فيه من زهر او مأكل او ثمر . فكان يحمل مع خراج الري (١) الرمان والخوخ المقدد . ومن اصبهان (٢) والموصل (٣) العسل والشمع . ومن الكوفة البنفسج . ومن جرجان (٤) النرجس . ومن الصيمرة (٥)

---

(١) الري مدينة مشهورة في ايران . انظر معجم البلدان ج ٢ ، ٨٩٢
(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٩٢
(٣) انظر المصدر السابق ، ج ٤ ، ٦٨٢
(٤) انظر المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤٨
(٥) انظر المصدر السابق ، ج ٣ ، ٣٤٢

الاترج . وكان يحمل من مكة النارنج . ومن طبرستان (١) والمدينة والحجاز الى الخليفة العنبر والزبيب . ومن الاهواز (٢) ثلاثون ألف رطل من السكر . ومن فارس (٣) ماء الورد ، والزبيب الاسود والرمان والسفرجل والتين . اما دمشق فكانت ترسل الى الخليفة التفاح . وكان المأمون معجبا به . يؤخذ اليه منه ثلاثون ألف تفاحة مع الخراج . (٤)

وكانوا اذا اشتهوا شيئا ولم يكن له نصيب في الخراج ارسلوا يطلبونه . فقد كانوا يطلبون الوان اللحوم والطيور ، ولو بعد مكانها ، فتأتيهم على البريد . ينفقون في ذلك الاموال الكثار ليتمتعوا بالطيبات من المآكل والثمار . (٥)

ولعل من اشد مظاهر الحضارة في هذا العصر تعدد الالوان التي كانت تهيأ من الطعام ، وقد كان عدد هذه الالوان يبلغ ، في بعض الاحايين ، مبلغا ، ماعرف ولا سمع بمثله . حدث جعفر بن محمد — وكان احد العشرة الذين اختارهم المأمون لمجالسته ومحادثته من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم — قال : تغدينا يوما عند المأمون . فظننت انه وضع على المائدة اكثر

---

(١) انظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ٥٠١
(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٤١٠
(انظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ٨٣٥
(٤) انظر فيما يتعلق بهذا الخبر : ثمار القلوب ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ — ولطائف المعارف (ليدن) ص ٩٥
(٥) ثمار القلوب ، ص ٤٢٨

من ثلاثماية لون . وكلما وضع لون ، نظر اليه المأمون وقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافـع لكذا . (١)

ومهما يكن امر هذا الظن الذي ظنه هذا الفقيه ، فلا بـد ان يكون عدد الوان الطعام كبيرا . وقد كنا نـرتاب بالخبر ، لولا ان ذاكره هو ابن طيفور ، ولم يؤرخ المأمون احد مثله .

ويؤيد ماذكرنا تكثير الخلفاء الوان الطعام مارواه المسعودي. فقد ذكر ان الرشيد كان ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم . وانه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام . (٢) وكان يتخذ للقاهر اثنا عشر لونا . (٣)

ولا شك ان اثر الفرس والروم فى الاطعمة العباسية كان واضحا . فقد عرفوا طرائف الطعام الفارسية ، وطرائفه الرومية ، واقبلوا على اللحوم والبقول ، وعلى البوارد والحلويات . وعكفوا على التنويع والتفنن فى التحضير مما لاعهد للعرب الاوائل فيه .

على ان هؤلاء الخلفاء ، كانوا لايقدمون على هذه المآكل الا بعد مشورة اطبائهم ، ولا يتناولونها الا بحضورهم ، لان ذلك ادعى الى السلامة ، وآمن من مغبة النهم .

---

(١) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ٥٧
(٢) حضارة الاسلام فى دار السلام ، ص ١١٠
(٣) الحضارة الاسلامية لمتز ، ج ١ ، ٢٤٧

ويحدثنا ابن ابي اصيبعة ان الرشيد كان يطلب جبرائيل المتطبب ليحضر أكله . (١) وكان الامين لايأكل ولا يشرب الا باذن ابن بختيشوع (٢) وكان بعض بني هاشم لايتناولون اطعمتهم الا بحضرة يوحنا بن ماسويه . (٣) كان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشنات المسخنة الطابخة القوية للحرارة الغريزية فى الشتاء . وفى الصيف بالاشربة الباردة الطابخة المقوية والمعاجين . (٤)

***

فلننظر الان فيما كانوا يرغبون فيه .

نلاحظ ان اكثر ميل ملوك بني العباس كان الى اللحوم ، وخاصة لحوم الدجاج . يقول الجاحظ : « وملوكنا واهل العيش منا لايرغبون فى شيء من اللحمان رغبتهم فى الدجاج . وهم يقدمونها على البط والنواهض والدراج ، وعلى الجداء ...وهم يأكلون الرواعي كما يأكلون المسمنات .» (٥)

اما رغبتهم فى الدجاج فذلك لانه اكثر اللحوم تصرفا . فهي تطيب شواء ، ثم حارا وباردا ، ثم تطيب فى البز ماورد — وهو طعام من البيض واللحم ، او من رقاق ملفوفة بلحم — ثم تطيب

---

(١) عيون الانباء ، ج٢ ، ٣٤
(٢) القفطي ، ص ٩٨ (السعادة)
(٣) عيون الانباء ، ج ١ ، ١٢٨
(٤) القفطي ، ص ٢٤٩
(٥) الحيوان (هارون) ج ١ ، ٢٣٣

في الهرائس وتطيب طبيخا ، وان قطعتها مع اللحم ، دسم ذلك اللحم ، وتصلح للحشاوي وسمينها يقدم فى السكباجة على البط . (١)

وكانوا يأكلون فى الشتاء من اللحم ماكان حارا مهيجا . قال المأمون لابي كامل الطباخ يوما : « اتخذ لنا رؤوس حملان تكون غداءنا غدا . ثم التفت الى علي بن هشام ، وكان حاضر: ، فقال أن من آيين الرؤوس ان تؤكل في الشتاء خاصة ، وان يبكر آكلها عليها ، وان لايخلط بها غيرها ، ولا يستعمل بعقبها الماء . » (٢)

وكان المأمون يميل الى لحم الغنم . قال للحسن بن سهل يوما : نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة ، سوى سبعة ، قال الحسن : وما السبعة ياأمير المؤمنين ؟ قال : خبزالحنطة ولحم الغنم ، والماء البارد .. وعد اربعة غيرها . (٣)

وقد يعجب بعض الخلفاء بالملحات والمقورات . فقد خرج المقتدر يوما الى بستان الخلافة ، فطلب طعاما ، فلم يحضر طعامه فقدم له ملاح جونة من خيازر (ج خيزران) ، فيها جدي بارد ، وسكباج مبرود ، وبزماورد ، وادام ، وقطعة

(١) الحيوان ، ج ٢ ، ٢٥٠

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٥

(٣) المستطرف ، ج ١ ، ١١١

مالح ممقور ، وأرغفة سميذ جيدة . فاستنظفها وأكل منها واستطاب المالح والادام ، فكان أكثر اكله منه . (١)

وعلى ذكر البزماورد نقول انه كان يسمى فى العصر العباسي لقمة الخليفة ، ولقمة القاضي ، ونرجس المائدة . (٢) وهذه التسميات تدلنا على ان الخلفاء والقضاة كانوا يأكلونه ويحلون به موائدهم .

وهذا البزماورد ، كان يتخذ من اللحم والبيض فى بغداد . ويذكر لنا الجاحظ ان اهل خراسان كان يعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير . (٣)

ويبدو أن اتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ليس بعجيب فقد كان الفضل بن يحيى يوجه خدمه فى طلب فراخ الزنابير ليأكلها ، وفراخها ضرب من الذبان الكبار ، كما يقول الجاحظ . (٤)

وكانوا يرغبون فى السكباج . ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد المرق . ولقد تشكى خليفة يوما لجارية له من هذا اللون من الطعام ، فقال لها : الى كم سكباج ؟ قالت : هو مخ الاطعمة ، لايكره بارده ولا يمل حاره ، بل يستطاب فى الحضر ، ويتزود منه فى السفر ، ولا يؤثر عليه الضيف فى الشتاء والصيف . (٥)

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢

(٢) شفاء الغليل ، ص ٩٨

(٣) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٤

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ٤٥

(٥) ثمار القلوب ، ص ٤٩٠

وكانوا يعنون بالسكارج والبقول ويقولون : لكل شيء حلية وحلية الخوان السكرجات والبقول . (١) ويقدرون الارز حق قدره ويقولون : الارز غذآء صحيح . (٢)

وكانوا يأكلون السنة السمك . يعمدون الى السمك فينزعون السنته ويأكلونها . ولقد دعا ابراهيم بن المهدي الرشيد مرة فأعد له طبقا من ألسنة سمك . وانفق على صحفة صغيرة منه مبالغ طائلة . (٣)

اما السمك نفسه فكانوا يأكلونه ايضا . وجدير بالذكر انه كان مرغوبا فيه من النصارى أيضا . فكانوا يأكلونه أكلا ذريعا. ويحدثنا الجاحظ انه لكثرة اقبالهم عليه كانوا يغلونه على الناس. حتى تتوخى اياما باعيانها فلا يشتري السمك الا فيها طلبا للامكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ، ويوم السبت ويوم الثلثاء . (٤)

ومن المآكل التي كانوأ يعجبون بها البان الظباء . وكان الرشيد يسر بها . زار جعفر بن سليمان والي البصرة سنة ١٩٦ هن ، فاحضر له جعفر على مائدته البان الظباء وزبدها ، فاستطاب طعومها وسر بها . (٥)

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٨٧
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤١ ـ والقول للرشيد .
(٣) مروج الذهب (بهية) ج ٢ ، ٢٧٩
(٤) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٣١ ـ ٤٣٣
(٥) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٥٩

وثمة لون آخر كانوا يشتهونه ، هو كبود الدجاج . ويحدثنا التنوخي ان ابراهيم الحراني الصابىء الطبيب كان بين يدي الموفق يوما ، فقال : انا اشتهي شهوة منذ سنتين ، واستقبح أن أطلبها . وقد عن لي الساعة مواضعتك على طلبها !

قال ابراهيم : قلت ياأمير المؤمنين مره !

قال : ويحك انا والله منذ سنين كثيرة اشتهي كبود الدجاج وقوانصها مطبهجة ، واستقبح ان اطلبها . واريد اذا قدمت المائدة ، وجلست معي للاكل ، ان تشتهي ذلك على وتشير به من طريق الطب ، لأتقدم اليهم باتخاذه ، بشيء يسير ، فيصير ذلك القدر رسما فى كل يوم ، لايؤثر عليهم قدره .

قال : فعجبت من كرمه وفرط حيائه من خدمه حتى يلفق الحيلة . وقدمت المائدة ، فجلس يأكل وحده ، وجلست مع الندماء آكل على مائدة بين يديه . فلما أكل بعض أكله قلت : لم لايأمر أمير المؤمنين بان يتخذ له شيء يسير في زبديات من كبود الدجاج المسمن وقوانصه بالبيض ؟

فاصلح له زبدية من كبود الدجاج وقوانصها وصار رسما جاريا . (١)

اما الخبز فكانوا ينوعونه ، ويتخيرون أطيبه . وكان الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميذ ، والثالث الحواري

---

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ٤٧

والرابع الخشكار ، والخامس والسادس خبز الارز النقي من خبز التنور . (١)

ويبدو ان الخبز وكثرته كان يؤثر فى نفس بعض الخلفاء ، فلقد سأل الواثق أحمد بن ابي دؤآد يوما : ماجمال الموائد !

فقال : كان يقال جمالها كثرة الخبز عليها !

فقال : اصبت واحسنت ، فان اختلفت الالوان ، وكان الخبز كثيرا شهد لصاحبها بالشرف . (٢)

***

فهذه بعض الالوان التي كان الخلفاء يرغبون فيها من المآكل وهي الوان فيها الغريب والنادر . وكانوا ينفقون في سبيل الحصول على هذه المطاعم الاموال الكثير . وقد ذكروا ان الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آف درهم . (٣) وان نفقات المطابخ والمخابز بلغت فى القرن الرابع ، في دار الخلافة عشرة آلاف دينار فى الشهر . (٤) وهذا المبلغ دليل على كثرة الانفاق. وان كان اكثر هذا من باب الاسراف. ويحدثنا التنوخي ان المعتضد طلب يوما لونا من طعام ، فقيل له ماعمل اليوم ، فانكر ذلك وقال : يجب ألا يخلو المطبخ من كل شيء حتى اذا طلب لم يتعذر. ووقع الى ديوان النفقات باقامة

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤٢
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤١
(٣) مروج الذهب (بولاق) ج ٢ ، ٣٤٢
(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ج ١ ، ٢٤٧

ذلك اللون الى ان يرد التوقيع بقطعه . فكان يعمل وينفق عليه دراهم كثيرة ولا يحضر المائدة توقعا ان يطلبه ، وهو يصنع . وكان هذا اللون جزورية ، وكان الطباخ يذبح فى كل يوم قلوصا . (١)

على انه اذا كان بعض هؤلآء الخلفاء ينفقون الاموال على الدجاج وكبود الدجاج وعلى ألسنة السمك والجدآء وغير ذلك ، ويحرصون كل الحرص على التلذذ بها ، فقد كان بعضهم الآخر ، كالقاهر ، يستكثر صنوف الطعام ان توضع امامه ، ويقتصر على مايكفيه . (٢) وكان آخرون كالمهتدي لايأكلون غير الخبز النقي ومعه الملح والخل والزيت . (٣)

***

ويجب ان نذكر هنا انه كان فى قصر الخلافة صاحب طعام وشراب . وقد ذكر ابن ابي الربيع الشروط التي ينبغي ان تكون فيه ، والاعمال التي ينبغي ان يقوم بها . قال :

« واما صاحب الطعام والشراب ، فينبغي ان يكون ثقة مؤتمنا عاقلا حرا مجلا للملك ، مجتهدا فى رضاه ، وأن يتلطف فى منع الملك عن بعض المطاعم التي لاتوافقه ، ويعرفه وجه المصلحة فى تركها . وأن لايعرض عليه طعاما عرضه مرة قبلها، وينبغي ان يتصفح الطعام والشراب فى كل ساعة ، حتى الملح

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢
(٢) الصابي ، ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢
(٣) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٤٥

والخل وأشباههما . وليكثر مراعاة الآلات ، فان رائحة الطعام وجودة عرفه وحسن تنضيجه ، يفتق الشهوة . ويجب ان يكون خبيرا بتنصيص الالوان وترتيبها واوقاتها ليختار لكل فصل مايليق به . وينبغي ان يكون عارفا بما يجلب من البلاد من المطاعم والمشارب ، والجيد منها والمغشوش . وان يكون ذا علم بأدب المجلس ، بصيرا بتعبئته ، وبحسن اوانيه . ويجب ان يكون عالما بما يهوى الملك من الاطعمة والاشربة فيبالغ فى اتخاذه وتجويده . » (١)

***

على أن بعض هؤلآء الخلفاء ماكانوا يقنعون بان يكون لديهم صاحب طعام يدبر أمر طعامهم ، أو طهاة كما يشتهون ، بل كانوا أنفسهم ذوي معرفة بالطبخ ، ومهارة فيه ، وعلم بتركيب الاطعمة ، وأثر بعضها فى بعض .

ذكر الشابشتي ان المأمون جلس فى بعض الايام وأمر بأن تحضر اللحوم والحيوان وما تحتاج اليه من آلة الطبخ ، وقال للندماء : ليطبخ كل واحد منكم قدرا !

وطبخ هو ايضا قدرا ، وطبخ اخوه أبو اسحق قدرا . ففاحت لهما روائح غلبت على روائح قدورهم طيبا وعطرية

(١) سلوك المالك فى تدبير الممالك ، ص ١٣٦

فعجبوا من ذلك ،وعبادة (١) حاضر . فحسده فقال : ان اردت ان تزيد فى طيب قدرك فصب فيها سكرجة كامخ !

فأخذ سكرجة كامخ وصبها فى القدر . فساعة صب السكرجة فاحت لها روائح منتنة . فقال المأمون : ويلكم ماهذه الروائح المنتنة ؟

فقال عبادة : رائحة قدر اخيك الطباخ !

قال : ماذا طرحت فيها حتى عادت بعد الطيب الى هذه الرائحة ؟

فقال : سكرجة كامخ اشار بها عبادة !

فقال : اما علمت أنك اذا أدخلت جسما ميتا على جسم حي افسده ؟

فحقدها المعتصم على عبادة . (٢)

وذكر المسعودي ان المعتصم جلس فى الجوسق حمكا يوما في تمييز طعام طبخه ندماؤه ، فكان يأكل من كل قدر ويبين ميزتها ويصفها .

(١) هو عبادة المخنث . كان أبوه من طباخي المأمون

(٢) الديارات (دير الشياطين) . وانظر عن مهارة المأمون فى الطبخ ماذكره المسعودي . مروج ، ج ٩ ، ١٨ (باريس)

- ٩ -

الخلفاء العباسيون والتجسس

شغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا اليه . وقد كان لابد لهم من تسقط الاخبار والحفول بها لئلا ينسبوا الى الضعف والغفلة أو يجترىء عليهم الأعدآء والاخصام . فان من أخلاق الملك اليقظ السعيد ، على قول الجاحظ ، البحث عن سرائر خاصته وعامته وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين . (١)

وبغداد ، وما كان فيها من أخلاط المخلوقات وأنماط الناس، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية ، كل هذا دفع الخلفاء الى التجسس ولم الاخبار ، ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجري .

وقد ذكروا ان الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته ، يرسل الجواسيس والعيون يتجسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسي ، ولا كان

(١) التاج فى أخلاق الملوك ، ص ١٦٧

المجتمع اذ ذاك كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب ان يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات الملك .

كان التجسس يجري على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين فى كل مكان . وكان عليهم أن يعرفوا حال العمال ، عمال الخراج ، والضياع ، وأن يتتبعوا ذلك تتبعا شافيا ، ويستشفوه استشفافا بليغا ، وأن ينهوه على حقه وصدقه ، وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري فى أمور الرعية فيما يعاملون به من الانصاف والجود ،والرفق والعسف ، فيكتبوا به مشروحا. وأن يعرفوا ماعليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . وان يعرفوا حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق . وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن . وفي كل ماينهونه ، ينبغي أن يكونوا صادقين ، واثقين مما ينهون . فأذا ورد كل ذلك على الحضرة سلم الى صاحب ديوان الانشآء ليحمله الى حيث يطلع عليه الخليفة ، ويأمر بما يرى . ثم يكتب للآفاق بما ينبغي . (١)

فهؤلآء ، كانوا جواسيس رسميين . أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعا

(١) الخراج لقدامه (دغويه) ، ص ٢٨ — ٣٢ و ١٨٤ ، ١٨٥

منوعة ، تفنن الخلفاء فى استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمرأة والمحتاج والزمن وابن السبيل ... »

أول من عني بالتجسس الخفي من الخلفاء : أبو جعفر المنصور ، « فقد كان يشتري رقيقا من الرقيق ، ثم يعطي الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، أو يردون الماء كالمارين وكالضالين فيتجسسون ... » (١)

ويحدثنا الطبري أن أبا جعفر أتى مرة بأحد جنده ، فقال له : اخف شخصك واستر أمرك وائتني فى يوم كذا فى وقت كذا !

فأتاه ، فقال له : ان بني عمنا هؤلآء قد أبوا الا كيدا لملكنا واغتيالا له . ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم بصدقات أموالهم ، وألطاف من ألطاف بلادهم . فأخرج بكسى وألطاف وعين حتى تأتيهم متنكرا بكتاب عن أهل هذه القرية . ثم تسبر ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب . وان كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فأشخص حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفا متخشعا ، فان جهلك ، وهو فاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته . فان ظهر لك مافى قلبه فاعجل علي !

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب ، فأنكره ونهره ، وقال : ماأعرف هؤلآء القوم !

فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه وأنس به ، فسأله الجواب . فقال : أما الكتاب فلا أكتب لاحد . ولكن انت كتابي اليهم . فأقرئهم السلام ، وأخبرهم ان ابني خارجان لوقت كذا وكذا .

فعاد الجاسوس الى أبي جعفر وأخبره . (١)

وحدث صاحب عذاب أبي جعفر قال : دعاني أبو جعفر ذات يوم ، واذا بين يديه جارية صفرآء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقيني ، فوالله ماأريد الا الالفة . ولئن صدقتني لأصلن الرحم ، ولاتابعن البر اليه !

واذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله وهي تقول : ماأعرف مكانه .

ودعا بالدهق وأمر به فوضع عليها . فلما كادت نفسها ان تتلف قال : أمسكوا عنها !

وكره مارأى . وقال لأصحاب العذاب : مادوآء مثلها اذا صار الى مثل حالها ؟

قالوا : الطيب تشمه ، والماء البارد يصب على وجهها ،

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

وتسقى السويق . فأمر لها بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى أفاقت ، وأعاد عليها المسألة . فأبت الا الجحود . فقال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟

فأسود وجهها وتغيرت . فقالت : نعم ياأمير المؤمنين ، تلك في بني سليم .

قال : صدقت ، هي والله أمتي ، أبتعتها بمالي ، ورزقي يجري عليها في كل شهر . أمرتها ان تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أخباركم . أو تعرفين فلانا البقال ؟

قالت : نعم ، هو في بني فلان !

قال : هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته ان يبتاع بها كل مايحتاج اليه من البيوع . فأخبرني أن أمة لكم في يوم كذا من شهر كذا ، عند صلاة المغرب ، جاءت تسأله حناء وورقا ، فقال لها : ماتصنعين بها ؟

فقالت : كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة . فأردنا هذا لتتخذ منه النساء مايحتجن اليه عند دخول أزواجهن من المغيب .

قال : فأسقط في يدها ، وأذعنت بكل ماأراد . (١)

وهذه القصة ، والتي قبلها ، تبينان لنا كيف سخر أبو

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي (شوالي) ، ص ١٦٠

جعفر أحد جنده ، وأمته ، وبقالا مضاربا له للتجسس وجمع الاخبار .

ولعلك تعلم حبه تتبع الأسرار مما سأقصه عليك . قالوا : ان أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ماأحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لايكون أعف منهم ، وهم أركان الدولة ، ولا يصلح الملك الا بهم . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية !

ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة : آه ، آه !

قيل : ماهو ياأمير المؤمنين ؟

قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة . (١)

***

وكان الرشيد من اشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية ، وأحزمهم فيها أمرا (٢) . وكان يتسقط أخبار الهادي قبل ان يصبح هو خليفة . فقد كان مسرور الكبير في خدمة المهدي ، وكان الرشيد حفيا به محسنا اليه .

---

(١) التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ٢٢١

(٢) التاج ، ص ١٧٠

فلما انتقل أمر الخلافة الى الهادي قال له الرشيد : أخي قوي الشراسة ، وأنا أخاف ايقاعه بي وجمع الناس على بيعة ابنه بعده ، وأنا على غاية الثقة بك ، فاعدل اليه ، وكن له عينا عليه . .

فتقدم مسرور عند الهادي حتى تولى ستر بيت خلوته . فكان ينهي الي الرشيد كل كلمة من كلماته ، وفعل . (١)

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته ، حتى كان ذلك يدفعه الى اخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر بن يحيى فى الأسواق وبين الاحياء ليتسقط الاخبار ويعرف ما يدور بين الناس من الاحاديث ويستطلع ما لايصل اليه خبره . (٢)

ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيونا على ولديه . فكان مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين . (٣)

وعلى نحو هذا كان المأمون فى أيامه . ذكر أبو الفرج أنه لما تولى الخلافة وأتى بغداد ، كان يتجسس على ابراهيم بن

---

(١) المكافأة وحسن العقبى (محمود شاكر) ، ص ٦٣

(٢) الاغاني مثلا ، ج ٦ ، ١٣٧

(٣) الكامل لابن الاثير ، ج ٦ ، ٨٣

المهدي . فألزمه رجلا ينقل اليه كل مايسمعه من لفظه جدا أو هزلا . (١)

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمون أسرار رعيته رسالته الى اسحق بن ابراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام التي خبر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته وأموره التي خفيت ، أو أكثرها ، عن القريب والبعيد . (٢)

وقد ذكر صاحب محاضرة الأوائل أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعماية ، يتفقد بهن أحوال الناس من الاشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حرم المسلمين . وكان لايجلس الى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ، وأنه كان يدور ليلا ونهارا مستترا .

وقد يكون هذا الخبر صحيحا فيما يتعلق بارسال العجائز ، أما عددهن ، وأنه كان لايجلس الى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ، فقد يكون فيه مبالغة .

وكان المأمون يعني بمعرفة أحوال عماله . فكان يفحص عنهم وعن دفين أسرار حكامه فحصا شافيا ، فلا يخفى عليه مايفيد كل امرىء وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه فى بحثه وتنقيره . وكان يتتبع أحوال القضاة والولاة

---

(١) الاغاني ، ج ٢٠ ، ٨٢

(٢) التاج ، ص ١٧٠

والجند . (١) فذكروا انه سأل يوما جماعة : من أنبل من تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟

فذكر كل من يراه ، فقال : لا ، ذاك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة ، فيها خراجها ، وبها أموالها جمة . ثم خرج عنها . فلو شاء أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل . وقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكتب الي أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على لشرهت اليها نفسي ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التي قدمه فيها . الا مائة ثوب ، وحمارين ، وأربعة افراس . (٢)

وحدث بشر بن الوليد قال : كنت عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأبلة ، وأجرينا عليه فى الشهر ألف درهم ، وماله صناعة ولا تجارة ولا مال من قبل ، ولا بيت ابتناه وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم ،أشار علي به محمد بن سماعة ، فأقام بها أربعة عشر شهرا فوجهنا من يتتبع أمواله فى السر والعلانية . ويتعرف حاله ، فأخبر أنه وجد ماظهر من ماله فى هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا نهاوند فأقام بها أربعة وعشرين شهرا ، فوجهنا من يتتبع أمواله ،

(١) المحاسن والمساوىء ، ص ١٦٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣

فأخبرنا أن فى منزله خدما وخصيانا بقيمة ألف وخمسماية دينار ، سوى نتاج قد اتخذه . (١)

وذكر ابراهيم بن السندي أنه جالس المأمون ومعه ابراهيم ابن المهدي . فطفق يحدث عن أهل عسكره ، حتى والله لو ان رجلا أقام فى رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على معرفته ، لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس . (٢)

فهذه الحوادث كلها ، تدل على حبه التجسس ، ودس الناس ليتسقطوا له الأخبار ويطلعوه على مايشاء .

وثمة خليفة آخر اولع ببث العيون وتسقط الاخبار ، حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد التنوخي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ، ومهارة المتجسسين فى ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره يحب الشرب واللعب ، ويخاف ان يتصل بالخليفة خبره ، فيستنقصه وينسبه الى الصبوة والتهتك والتشاغل فى اللذات عن الاعمال . وكان لايشرب الا على أخفى وأستر مايكون . فخلا يوما مع جوار مغنيات ، ولبسن من ثيابهن المصبغات ، وأحضر فواكه كثيرة ، وشرب ولعب من نصف النهار الى نصف الليلة الأخرى . ونام بقية الليلة ، وبكر الى المعتضد للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئا .

(١) المحاسن والمساوىء ، ص ١٦٣

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٠

وبكر فى اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : ياقاسم ، ماكان عليك لو دعوتنا الى خلوتك وألبستنا من ثيابك المصبغات ؟

فقبل الارض ، وأظهر الشكر على هذا التبسط . وخرج وقد كاد يتلف غما لوقوف المعتضد على هذا القدر من أمره وكيف لاتخفى عليه مواقفه . فجاء الى داره كئيبا . وكان له فى داره صاحب خبر يقال له خالد يرفع له أمورها فأحضره وعرفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ان بحثت لي عمن أخرج هذا الخبر زدت فى رزقك وأجزتك كذا ، وان لم تعرفه نفيتك الى عمان ، وحلف له على الامرين :

فخرج صاحب خبره من حضرته متحيرا كئيبا لايدري مايعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد .

قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرت الى دار القاسم ، زياده تبكير على ماجرى به رسمي ، لفرط سهري وقلقي تلك الليلة ومحبتي للبحث . فجئت ولم يفتح باب دار القاسم بعد فجلست . فأذا برجل يزحف فى ثياب المكدين ، ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين . فلما جاء الى الباب جلس حتى فتح ، فسابقني الى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : أي شيء خبرك يافلان ؟

وصفعوه ، فمازحهم وطايبهم ، وشتمهم وشتموه ، وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم ... الساعة يركب !

قال : وأي وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كذا !

فلما رأيته يسأل عن هذا خمنتانه صاحب خبر ،فأصغيت اليه ، ولم أرهم يحفلون بأمره . وهو لم يدع بوابا ممن وصل الى الوزير وممن لايصل الا سأله عنه . وكان يبدأه بأحاديث اخرى على سبيل الفضول ،ثم زحف ،فدخل الى جنب اصحاب الستور ، فأخذ معهم فى مثل ذلك ، وأخذوا معه فى مثله . ثم زحف فدخل الى دار العامة . فقلت لأصحاب الستور : من هذا ؟

قالوا : رجل زمن فقير أبله طيب النفس يدخل الدار ، ويتطايب ، فيهب له الغلمان والمتصرفون !

فتبعته الى ان دخل المطبخ ، فسأل عما أكل الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وفى أي شيء أفاضوا . والطباخ والغلمان غلمان صاحب المائدة ، كل واحد يخبره بشيء . ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شيء . ثم خرج الى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء الى مجلس الكتاب فى الديوان ، فأقبل يسمع مايجري ، ويسأل الصبي بعد الصبي ، والحدث بعد الحدث، عن الشيء بعد الشيء ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه ،

والأخبار تنجر اليه وتتساقط عليه . والقطع تجيئه ، وهو يملأ تلك المخلاة .

فلما فرغ من هذا أقبل راجعا . فلما بلغ الباب تبعته ، فرجع حتى جاء الي موضع من الخلد فدخل اليه ، فوقفت أنتظره ، فأذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حسان ماشيا ... فتبعته حتى جاء الى دار قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا « هذه دار فلان الهاشمي ، رجل متجمل » . فرصدته الى وقت المغرب فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب . فكلمه من خوخة له ، فصاحبه ،ورمى اليه برقعة لطيفة ،فأخذها الخادم وانصرف. فبكرت من سحر الى الدار التي فى الخلد ، ومعي غلمان ، فأذا أنا بالرجل قد جاء بزيه الذي دخل به داره . فكبسته فى الموضع فأذا هو قد نزع تلك الثياب ، ولبس ثياب المكدين التي رأيتها عليه اولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمت أمره ، حتى أدخلته دار القاسم ودخلت اليه وقصصت عليه الخبر ، فاستدعاه وقال : لتصدقني الخبر آولا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة .

قال : تؤمنني ؟

قال : أنت آمن !

فنهض وقال : أنا فلان بن فلان الهاشمي ، رجل متجمل ، وأنا أتخبر عليك للمعتضد منذ كذا ... ويجري علي المعتضد خمسين دينارا فى الشهر . أخرج كل يوم بالزي الذي لاينكره

جيراني ، فأدخل دارا فى الخلد بيدي منها بيت بأجرة ، فيظن أهلها أني منهم ، ولا ينكرونني لزيي . فأخرج هنا بهذه الثياب وأتزامن من الموضع ، وألبس لحية فوق لحيتي مخالفة للوني، حتى لايعرفني من لايلقاني فى الطريق ، وأمشي زحفا الى دارك ، فأعمل جميع ماعرفت وأقتفي أخبارك من غلمانك ، لايعرفون غرضي ، ويخرجون لي بالاسترسال مالو بذل لهم فيه من الاموال الكثير لم يظهروه ، ثم أخرج الى موضع من الخلد فأغير ثيابي ، وأعطي ما اجتمع معي فى المخلاة للمكدين ، وألبس ثيابي الحسان ، وأعود الى منزلي . فاذا كان المساء جاءني خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمي اليه برقعة فيها خبر ذلك اليوم ، ولا افتح له بابا . فاذا كان آخر الشهر جاءني فأعطيته الرقعة ويعطيني الجائزة . »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم أياما ، فحسبه أهله أنه مات . فأقاموا عليه المآتم . فدخل القاسم على المعتضد فقال له : ابراهيم الهاشمي التزامي ، بحياتي أطلقه وأحسن اليه ... وأنت آمن من بعدها من ان أنصب عليك صاحب خبر .

فتركه القاسم ، وأنقطعت أخباره عن المعتضد . (١)

***

فهذه قصة رائعة طريفة تدل على مبلغ حب المعتضد تسقط الأخبار ، ومبلغ مهارة أهل ذلك العصر فى الحيلة والبراعة في التجسس . وهي قصة لاتحتاج الى تعليق ، فما قرأت في بابها فى كتبنا القديمة أشوق منها ولا أحلى .

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التي سردناها من قبل ترى ماكان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين .

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٩٢

- ١٠ -

ملاهــي الخلفــاء

افتن الخلفاء العباسيون فى أقتناص اللهو . وتخيروا منـه الوانا منوعة ، فى بعضها قوة ورجولة ، وفى بعضها الآخر رقة ونعومة . وقد ساعدتهم الحضارة والترف على الاغراق في اللهو حتى كان بعض الخلفاء يؤثر اللهو على كل شيء .

ونسوق هنا طرائف من ملاهي الخلفاء ، تبين ماكانوا عليه فى هــذا البـاب .

١ ـ الرياضة والمصارعة ورفع الاثقال

فممن اولع بالرياضة الأمين . كان قويا يحـب المصارعة . صارع أسدا مرة فأزال للاسد أصابعه عـن مواضعها (١) . وكان المعتصم قوي البنية ، فساعده ذلك على رفـع الاثقال ، كان يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات (٢) . وحمل مـرة بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا (٣) .

---

(١) مروج الذهب (بهية) ، ج ٢ ، ٣٠٢
(٢) الفخري ، ص ٢٠٩
(٣) العقد الفريد (مصر ، ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ٣٠٤

واولع المعتضد بالمصارعــة ايضا . فيقولـون أنه أراد أن يصارع اسدا ، فأقبـل يمشي اليه ، فعاجله بضـربة وثنى باخرى ، ففلق هامته ، فخر صريعا . فمسح السيف فـي صوفه حتى نظفه ، ورجع فأغمد السيف (١) .

٢ ـ الصوالجـة

وكانوا مولعين بالصوالجة ، وهي ضرب الكرة مـن ظهـور الخيل . واصل هذه اللعبة فارسي . (٢) فكانوا يبنون لها ميادين خاصة فى قصورهم (٣) .

كان الرشيد اول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ، ولعب بالنشاب فى البرجاس ،ولعب بالاكرة والطبطاب (٤) .

واخذ عنه ولداه حب الصوالجة . فكان المأمون ينزل الى الحلبة كل يوم (٥) . وأصبح الامين بعد بيعته بيوم فأمـر ببناء ميدان حول قصر ابي جعفر للصوالجة واللعب (٦) .

وأولع المعتصم بركوب الخيـل واللعـب بالصوالجـة (٧) . ويذكرون انه لعب مرة مع اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، ثـم صارا الى حجرة الحمام فدلكا جسديهما ثم نامـا .

---

(١) نشوار المحاضرة ،ج ٢ (مجلة المجمع العلمي ، المجلد ١٧، ص ٤٥٣)
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢١٨
(٣) الوزراء للصابي ، ص ١٣٨
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٥١٦
(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٧
(٦) الطبري ، حوادث سنة ١٩٣
(٧) ابن الاثير ، ج ٦ ، ٢١٦

وكذلك اولع المنتصر بالصوالجة ولعا شديدا .

٣ ـ الصيد

وغالى الخلفاء بالعناية بالصيد وشغفوا به . فقد استهوتهم ملاذه ومحاسنه ،وأغراهم مايستفاد به من النشاط والاريحية، والمران ، والرياضة ، والخفوق ، والحركة ، وانبعاث الشهوة ، ودفعهم اليه مافيه من الفروسية ، والتعلم على ركوب الخيل ، صعودا اد حدورا ، كرا او انكفاء ، وتعطفا او انثناء (١) .

كان ابو العباس السفاح كثير اللهج بالصيد ، لم يتركه ناشئا ومكتهلا . (٢)

وركب المنصور يوما ، فى صدره مشهرة ، وعلى يده بازي حتى عبر جسر بغداد بادئا ،وانكفأ فعبر الجسر الاخر راجعا. فلما عاد قال للربيع : ماقال الناس فى ركوب امير المؤمنين ؟ قال : عجبوا منها . قال : انه كان لامير المؤمنين فى ذلك مذهب وهو أنه سيأتي من ابنائنا من يحب الصيد ، ويتبذل فيه . فأحببت ان يكون مني مارأيت . فمتى فعل مثله منا فاعل بعدي قال الناس : قد ركب المنصورعلى مثل هذه الصورة.(٣)

وكان المهدي يخرج الى الصيد ، وعني بتربية الكلاب التي تسبق الظليم فى عدوها ، والبسها اطواقا من ذهب ، ووكل بكل

(١) البيزرة (كرد علي) ، ص ٥٣
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧

كلب عبدا يخدمه (١) . وفى هذا مشابه لما كان يفعله يزيد ابن معاوية فقد كان أشد الناس كلفا بالصيد لايزال لاهيا به ، وكان يلبس كلاب الصيد الاساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٢) .

والمهدي هذا كان لايكاد يغب الصيد ، وكان مجدودا فيه لايحرم ، حتى قال فيه بعض شعرائه :

يغدو الامام اذا غدا   للصيد ميمون النقيبه
فيؤوب ظافرة جوارحه   وأكلبه الاديبه
بمخالب وبراثن بدماء   ماقتنصت خضيبه
وسهامه لوحوشه والطير   قاصدة مصيبه
وكأنما عرفته فانقادت   لدعوته مجيبه (٣)

وكان يخرج اذا خرج بحفاوة ، وخرج مرة ومعه ابو دلامة يحوطه الفرسان متنكبين قسيهم ، متقلدين سيوفهم ، تتبعه الجند ، وقد حمل طائفة من الجند المؤن على الخزائن (٤) .

وكان للرشيد حظ من الصيد . وكان يرتاح اذا حضره ارتياحا شديدا حتى تحمله الاريحية على ركض فرسه ،والشد فى أثر الطريدة (٥). وكان كلما حل فى مكان خرج يتصيد (٦).

(١) حضارة الاسلام ، ص ٩٥
(٢) الفخري ، ص ٦٧
(٣) البيزرة ، ص ٥٨
(٤) حضارة الاسلام ، ص ٩٦
(٥) البيزرة ، ص ٥٩
(٦) الاغاني ، ج ٥ ، ١١٦

ولم يثن العلم والادب المأمون عن الصيد . فكان يخرج اليه. ويذكرون انه خرج ذات يوم لصيد الظباء فاصطادته غادة حسناء فقال :

خرجنا الى صيد الظباء فصادني
هناك غزال ادعج العينين احور
وصار فؤادي اذ رماني بسهمه
وسهم غزال الانس طرف ومحجر
فيامن رأى ظبيا يصيد ومن رأى
اخا قنص يصاد قهرا ويقسر (١)

وكان لايفضل على الصيد شيئا ايا كان . ركب يومابدمشق يتصيد حتى بلغ جبل الثلج ، فاعترضته فى بعض الطريق بركة عظيمة فى جوانبها اربع سروات لم ير احسن منها ولا اعظم . فنزل وجعل ينظر الى آثار بني أمية ويعجب منها ويذكرهم (٢) .

وكان المعتصم اكثر هؤلاء الخلفاء محالفة للصيد وأخفهم فيه ركابا ، وكان يلهج به كثيرا ، ويقطع أيام بطالته فيه . وبنى فى أرض دجيل بستانا طوله فراسخ كثيرة . فكان اذا ضرب حلقة من الحمر يضايقها ولا يزال يحدها حتى تدخل وراء الحائط فتصير بين البستان وبين دجلة ، فلا يكون لها

(١) الاغاني (ساسي) ج ١٠ ، ١٢٦
(٢) الاغاني (دار) ج ٤ ، ٩٧

مجال . فاذا انحصرت دخل هو وولده واقاربه وخواص حواشيه وتفننوا فى القتل . (١)

وكان اذا صاد عاد بصيد كثير . ذكر اسحق الموصلي قال : دخلت يوما على المعتصم وقد رجع من الصيد ، وبين يديه ظباء مذبحة وطير ماء وغير ذلك ، وهو يشرب . (٢)

اما الواثق فقد كان يخرج الى الصيد فى نواحي عكبرا (٣) وكان يخرج الى القاطول . (٤) ويحمل معه الجلساء والمغنين وفيهم اسحق الموصلي ، وعمرو بن بانة . (٥) ويصطاد الاوز والدراج وطير الماء . (٦) والسمك على شاطىء دجلة . (٧)

ثم كان المعتضد كالمعتصم فى اكثر اموره ومآربه لمباشرة الحرب والصيد ، فلم يكن ينفك من حرب الا الى صيد ، ولا من صيد الا الى حرب . وكان يخرج لصيد الاسود فيخيم عليها حتى لايبقى منها باقية . (٨)

وكان لهو المكتفي الدائم الصيد ، الا انه كان اكثر مايدمنه

(١) الفخري ، ص ٦٥
(٢) الاغاني ، ج ٢ ، ٨٣
(٣) زهر الاداب ، ج ٢ ، ٢٢١
(٤) الاغاني ، ج ٥ ، ١٠٥
(٥) المصدر السابق
(٦) المصدر السابق ، ص ١٧١
(٧) القفطي (المانية) ، ص ٣٨٧
(٨) البيزرة ، ص ٦٢ – ٦٣

الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبعا الضواري والجوارح .
وكان يباشر ذلك بنفسه . قال صاحب كتاب البيزرة : كان شديد الشغف بذلك ، يرتاح اليه . اخبرني بذلك ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، واخبرني من رآه بظاهر انطاكية ، منصرفه مع المعتضد عند اخذه وصيفا الخادم . (١) وكان المكتفي اذا خرج الى الصيد أخرج معه العسكر (٢) .

وكان المتقي يخرج الى الشماسية لصيد السباع .

فأنت ترى ان هؤلاء الخلفاء شغفوا بالصيد على انواعه ، وجعلوه لهواً من لهوهم ، وخاطروا فيه حتى جعلوا همهم صيد الاسد والسباع والجوارح .

٤ ـ النرد والقمار

ويظهر ان بعض الخلفاء كانوا يلعبون ويقامرون . ذكر ابو عبد الله محمد بن احمد بن حمدون قال : كنت قد حلفت وعاهدت الله ان لاعقد مالا من القمار وانه لايقع فى يدي منه شيء الا صرفته فى ثمن شمع يحترق ، او نبيذ يشرب ، أو جذر مغنية ، فجلست يوما الاعب المعتضد فقمرته بسبعين ألف درهم (٣)

وذكر صاحب « الاغاني » ان الرشيد لعب مع ابراهيم

(١) البيزرة ، ص ٦٥
(٢) الصابي ، ص ١٢٨
(٣) الاذكياء لابن الجوزي ، ص ٣٥

الموصلي بالنرد ، فى الحلقة التي كانت على الرشيد ، فقمر الرشيد ،فقام فنزع ثيابه وقال للرشيد : حكم النرد الوفاء به، وقد قمرت ووفيت لك .. فألبس ماكان علي . قال الرشيد : ويلك انا البس ثيابك ؟ فقال اي والله ! وما زال حتى نزع ماكان عليه فدفعه الى ابراهيم (١) .

وكان الامين يلعب بالنرد مع وزيره الفضل بن الربيع فيغلبه (٢) .

وكان الفتح بن خاقان يلاعب المتوكل . كانا مرة يلعبان فأستؤذن للقاضي احمد ابي دؤاد ، فاراد الفتح رفع النرد فمنعه المتوكل وقال له : اجاهر الله بشيء وأستره عن عبادة ؟ (٣) .

وهناك أمثلة اخرى ، تكتفي بذكر ماذكرنا .

٥ ـ الشطرنج

وكان الخلفاء العباسيون يلهون بالشطرنج لهوا كبيرا ، وكانوا يعدونه فى ذلك العصر من الاداب . قال الحسن بن سهل : الآداب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة انو شروانية ،وثلاثة عربية . أما الشهرجانية فضرب العود ، ولعب الصوالج ،ولعب

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ٣٩
(٢) الفخري ، ص ٥٥
(٣) زهر الاداب ، ج ٤ ، ٣١

الشطرنج. واما النوشراوانية ، فالطب والهندسة والفروسية.
واما العربية فالشعر والنسب وايام الناس (١) .

وقد كان الخلفاء العباسيون يعنون بالاداب الشهرجانية عناية كبرى، وقد رأيت بعض احتفالهم بالصوالجة ، وسترى مبلغ ولوعهم بالغناء والضرب على العود ، اما الشطرنج فكانوا يحبونه . وكان المأمون لايتركه ويقول : هذا يشحذ الذهن . (٢) حتى انه لما قدم من خراسان اراد ان يتلهى فلم يجد ما يتلهى به غير الشطرنج . (٣) ونسبوا اليه انه قال فى وصف الشطرنج شعراً . (٤)

وكان الرشيد يلعب الشطرنج اذا سافر فى دجلة فى حراقته . (٥)

وكان المتوكل يرى ندماه يلعبون الشطرنج بين يديه . (٦) وتوصل الصولي بالشطرنج الى منادمة الراضي ، والف له كتابا فيه .

وكذلك اولع بالشطرنج المعتضد ، وقد كانوا يشترطون فى

---

(١) زهر الاداب ، ج ١ ، ١٩٥
(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٢٨
(٣) محاضرات الادباء ، ج ١ ، ٤٤٨
(٤) مجلة الزهراء ، مجلد ١ ، ص ٤٤٨
(٥) الاغاني ، ج ٩ ، ٦٤
(٦) الفهرست ، ص ١٥٥

النديم ان يكون شطرنجيا ، واذا كانت القينة شطرنجية زادت قيمتها وزادت الرغبة فيها ،نظرا لجمعهابين الانوثة والمنادمة.

٦ — تربية الحيوانات وجمعها

وكان الخلفاء يتلهون بجمع الحيوانات والنظر اليها . كان للمنصور عناية بجمع الفيلة ، (١) وكان يجمع الخيل حتى انه اجتمع له من الخيل مالم يعرف مثله فى جاهلية ولا أسلام .

وكان الرشيد يلتذ بمرأى الخيل ، ويجريها أمامه (٢) وكان يجمع الاسود والنمور وغيرها فى الاقفاص (٣) .

وكان لزوجته زبيدة قرد مولعة به ، فمات . فساءها ذلك ونالها من الغم ماعرفه يومئذ الصغير والكبير من خاصتها ، حتى ان ابا هارون العبدي كتب اليها يعزيها فيه (٤) .

وكان الامين يشرب ويشرف على حير الوحش عنده . وقد غناه مرة ابراهيم بن المهدي وهو مخمور يشرف على الحير . فما ابتدأ يغني حتى اصفت الوحش اليه ومدت اعناقها ، ولم تزل تدنو منه حتى كادت ان تضع رؤوسها على

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ، ١٥٠
(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٧٩
(٣) العقد ، ج ١ ، ١٥٠
(٤) زهر الاداب ، ج ٤ ، ١٠١

الدكان الذي كانوا عليه . فلما سكت نفرت وبعدت . فعجب الامين أشد العجب من ذلك (١) وهذا الخبر يدل على مبلغ تعلق الامين بالوحش ، فالشرب لايكون الا على ماهو جميل يحب . وقد كان الامين يحب الوحش . وكذلك يدل على براعة ابراهيم فى الغناء حتى انه اطرب الوحش فحنت اليه وقربت منه .

وكان المعتصم يحب الخيل ، ويلتقط احاسنها ، حتى انه أخذ فرسا أشهب من عند أبن الزيات ، وكان أعجب به (٢).

وبنى المقتدر فى دار الشجرة حيرا كبيرا ، وكان فيه من اصناف الوحش قطعان تقرب من الناس وتشمهم وتأكل من ايديهم ، وفيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ، وفيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع فى يد سباع ، وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد (٣) .

ويذكر المسعودي ان الخلفاء كانوا يعنون ايضا بمناطحة الكباش . وانه كان لديهم كباش يناطحها بين يديهم ، وديوك . فلما جاء المهتدي بالله ذبحها جميعا . (٤)

٧ ــ الشراب والغناء والمجون

ونأتي الان الى ضرب من ضروب اللهو تشارك فيه أغلب الخلفاء

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ٥٣
(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ١٨٧
(٣) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ١٠٥
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣٦

هو الشراب وما يتبعه من غناء ، ورقص ، ومنادمة ، ومجون . ونحن نعلم أن اهل العراق كانوا لايرون بالشراب بأسا . (١) لذلك انتشرت دور الخمر ، فى كل مكان . (٢)

لم يؤثر عن السفاح انه آثر اللهو والخلاعة او انغمس في المجانة ، فاذا سمع غناء طرب وصاح من وراء الستار فيعاد الصوت . ولم ير فى دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث . (٣) وكان لايشرب على مائدته شراب (٤) ولم يكن يظهر لندمائه بشرب ولا غناء ، بل كان يجلس وبينه وبين الندماء ستارة ، وبينهم وبينها عشرون ذراعا . (٥)

واول من ظهر للندماء فى الشراب من خلفاء بنى العباس المهدي . (٦) وكان قد احتجب بادىء ذي بدء عن المغنين ، ثم قال : انما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدنو ممن سرني ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ (٧)

ثم اطلق عنان شهواته ، فلذ وترف وتنعم ، فأخرج قصره ولديه زينة الدنيا وبهجة عصرهما فى الظرف والغناء : ابراهيم بن المهدي ، وعلية بنت المهدي . (٨)

(١) انظر كتاب الاشربة لابن قتيبة (كرد علي)
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٢
(٣) الفخري ، ص ١٨٧
(٤) الطبري ، ج ٩ ، ٣٠٩
(٥) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٠٥
(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٥
(٧) التاج ، ص ٣٥
(٨) ضحى الاسلام ، ج ١ ، ١٠٨

وكان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب ، ويركب حمارا فارهاً ، ولا يقيم للخلافة ابهة . (١) وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل . غناه ابراهيم الموصلي يوما فقال للقيم على الخزانة : ادخله بيت المال فليأخذ منه ماشاء . (٢)

واولع الرشيد بالغناء ، وكان ابراهيم بن المهدي يغني اخاه الرشيد فيستمع اليه ويطرب ، وكان ابو عيسى بن الرشيد يقول لعمه : السكر على صوتك شهادة ياعم (٣) .

وكان اذا شرب لم يحضر شربه الا خاص جواريه (٤) . وكان يشرب فى كل جمعة مرتين ، وربما قدم ايامه واخرها ، على انه لم يره احد قط يشرب ظاهرا . (٥) ولكنه كان يشرب مع ندماه ومغنيه .

والرشيد هو الذي جعل للمغنين مراتب وطبقات ، فكان ابراهيم الموصلي وابن جامع وزلزل الضارب فى الطبقة الاولى. وكان زلزل يضرب ، ويغني الموصلي وابن جامع عليه. والطبقة الثانية : أسحاق برصوما ، وسليم بن سلام ، وعمرو الغزال . والطبقة الثالثة : اصحاب المعازف والطنابر . وكان يطرب للغناء ، ويصل المغنين بأموال كثيرة . (٦)

---

(١) أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩
(٢) التاج ، ص ٣٥ – ٣٦
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢١
(٤) التاج ، ص ٣٧
(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٣
(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ – ٤٢

وكان الامين لاينقطع عن الشراب ، وقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : قد الهاه كأسه وشغله قدحه ، فهو يجري فى لهوه والايام تسرع فى هلاكه . وكان يشرب بأقداح من بلور مرصعة بالجوهر . ووجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين فضمهم واجرى لهم الارزاق ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ولهوه وشربه ولعبه . (١)

وكان شديد الطرب الى الغناء ، واسع العطاء اذا طرب . وصفه اسحق الموصلي فقال : ماكان يبالي اين قعد ومع من قعد . وكان ، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب ، خرقها كلها والقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من اعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال اذا طرب او لها. وقد رأيته امر لبعض اهل بيته فى ليلة بحمل زورق ذهبا ، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار .

وحتى فى اعسر ساعات حياته ، عندما احيط به ، كان يستمع الى الغناء ، فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت احدى الجواري تغنيه . (٢)

ويذكر الجاحظ ان المأمون كان يشرب فى اول ايامه الثلاثاء والجمعة ، ثم انه ادمن الشرب عند خروجه الى الشام فى سنة خمس عشرة ومائتين الى ان توفى . (٣)

---

(١) الطبري ، ج ١٠ ، ٢١٥
(٢) التاج ، ص ٤٢ – ٤٣
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣

وكان فى اول امره أقل ميلا للغناء من اخيه . واقام بعد قدومه من خراسان عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الغناء . ثم سمعه من وراء حجاب متشبها بالرشيد ، ثم ظهر للندماء والمغنين (١) . وتصف كتب الادب مجالس شربه ولهوه ، وكان يحضر الجواري الحسان يسمع غناءهن ويتمتع بجمالهن . حدث اسحق قال : دعاني المأمون يوما وعنده ابراهيم بن المهدي وفى مجلسه عشرون جارية قد اجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره وهن يغنين .

وكان الواثق مدمنا الشرب يتابعه ، غير انه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها (٢) . وكان يحب الغناء ، بل كان هو نفسه مغنيا ، وكان المغنون يحيطون به لايفارقونه ، وكان يعجب باسحق الموصلي ويقول : ماغناني أسحق قط الا ظننت انه قد زيد فى ملكي ، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سريج الا ظننت ابن سريج قد نشر . ان اسحق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ احد بمثلها . ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي (٣) .

والى جانب غنائه كان حاذقا بضرب العود ، وله أصوات عملها نحو مائة صوت (٤) .

(١) التاج ، ص ٤٣
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٣
(٣) الاغاني
(٤) أخبار الخلفاء ، ص ١٣٦

وكان المعتصم يشرب طول الجمعة ، لاينقطع الا يوم الخميس ويوم الجمعة (١) .

اما المتوكل فقد كان منهمكا فى اللذات والشراب انهماكا كبيرا (٢) . وكان بنان وزنام لايفارقانه ، هذا يضرب وذاك يزمر . وكان لايشرب الا على سماعهما (٣) . وكان اول من اظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل (٤) .

وكنا رأينا كيف كان يحب الورد ويشرب عليه .

وكان المتوكل يدخل السماجة فى مجلسه (٥) . وهم اناس كانوا يحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم فى اصواتهم ويظهرون فى مظاهر مضحكة .

ولما تولى الخليفة القاهر امر بتحريم الغناء والخمر ، ولكنه كان هو يشرب المطبوخ ولا يكاد يصحو من السكر (٦) . وكان مولعا بالغناء والسماع ، فوضع من يشتري له كل حاذقة فى صنعة الغناء . « وفى بستانه الذي غرس فيه النارنج وحمل اليه الغروس من أرض الهند ، وجعل فيه انواع الاطيار » (٧) كان يشرب ويستمع الى الغناء .

(١) التاج ، ص ١٥٣
(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٣٩
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٢
(٤) مروج الذهب ، ج ٣ ، ٣٦٩
(٥) الديارات ، ص ٢٦
(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٠٣
(٧) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٥٢٨

وبدأ الراضي خلافته بالامتناع عن الشراب ، ثم اغـــواه اصحابه ، وكان قد اعطى الله عهدا الا يشرب ، فوجد الفقهاء له رخصة ، وصار يشرب ويلهو .

وبعكسه المستكفي ، فقد كان قـد تـرك الشراب قبـل الخلافة ، فلما أفضت اليه الخلافة دعا بالنبيذ وشربه . (١)

وكان المعتز يشرب كثيرا ، وكـان يشرب فى البسـاتـين الملأى بالنمـام وشقائـق النعمان ، وعلى وجـه غـلامه يونس بن بغـا (٢) .

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٣٠

(٢) الديارات ، ص ١٠٦

- ١١ -

سجون بغداد

تمهيد : مانحسب ان أحدا من المتقدمين أو المحدثين ، بحث في السجون على التفصيل . فهذا مبحث بكر طريف . سنحاول ان نقدم اليك فيه صورة واضحة تبين لـك سبب السجن ، وتريك أنواع السجون وضروب السجنى . ثم تطوف عليهم ، فترى مايأكلون وما يلبسون ، وكيف يفرون ومتى يخرجون . فاذا فرغنا عقدنا فصلا خاصا بأدب السجون ، ثم استدركنا مافاتنا من الحوادث والاخبار المتعلقة بهذا الموضوع .

ويتساءل الانسان عند البحث فى هذا الموضوع عن الاسباب التي كان الناس يساقون بها الى السجن . أفكانوا ينهجون نهجا أو يتبعون شريعة اذا خرج عنها واحد عوقب بالسجن ؟ الحق انه لم يكن شيء من هذا . فقد كان يكفي ان يقول الخليفة او الامير أو صاحب الشرطة « الحبس » حتى يودعوا من لفظت بسببه « المطبق » (١) فقد كان الحبس سلاحا فى يد الخلفاء

---

(١) الديارات ، دير مديان مثلا

والوزراء ، وقوة يكيدون بها للمتمردين والعاصين والاعدآء ، ويهددون مخالفهيم فيما يشتهون ويحبون .

١ ــ الوزارة سبيل السجن

من العجب ان نرى الوزارة كانت سبيلا يوصل الى السجن فى غالب الاحيان. وندرمن نجا من الوزرآء ولم يسجن .وربما قتل ولم يحبس ، وربما أصابه الامران معا. فقد سجن يعقوب بن داود وزير المهدي (١) ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد ، ويحيى بن خالد وابنه الفضل (٢) . وسجن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق بعد ان صودرت أمواله ونهبت دوره وضمت الى القواد ضياعه (٣) ، وسجن أبن الخصيب وزير المستعين ونكب . (٤) كما حبس أبو الصقر وزير المعتمد وقتل (٥) ولم ينج محمد بن عبيد الله من السجن ، فقد عزله المقتدر من الوزارة وحبسه مع ابنه . (٦)

وسبب ذلك ان الخليفة كان يستمع الى اقوال المنافسين ويصغي الى مقالة الحاسدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه . فاذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه ، وخشية ان يشغب فيبعده عن السلطان .

---

(١) الفخري ، ص ٢٢١
(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٧٠
(٣) الطبري ، حوادث سنة ٢٣٣
(٤) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٣٠٥
(٥) الاداب السلطانية ، ص ٣٠٠
(٦) المنتظم ، ج ٦ ، ١٢١

٢ ــ مناوئو الخلافة

اما مناوئو الخلافة ، والشاغبون عليها ، فكان مثواهم السجن . فقد سجن عبد الملك بن صالح ، وقد سعى به عند الرشيد بطلب الخلافة (١) . وسجن العباس بن المأمون عندما دعا الى نفسه (٢) وحبس الافشين لما شق عصا الطاعة على الخلافة ، ولم يجدوا بدأ من اتهامه بالزندقة ليقتلوه . (٣)

٣ ــ الديون والمصادرات

وكانت الديون والمصادرات تودي بصاحبها الى السجن . وكثار من صودرت أموالهم واودعوا السجن ، ثم أتى بهم فنوقشوا الحساب ، وطلب منهم رد الاموال . حدث سليمان بن وهب قال : « كنت أنا والعباس بن الخصيب ، مع خلق من العمال والكتاب معتقلين فى يدي محمد بن عبد الملك في آخر وزارته للواثق ، نطالب ببقايا مصادرات . فقبض علي ، فلم أشك فى انه القتل . وفتحت الابواب ... وحملني الفراشون لثقل حديدي ، وحملت الى اسحاق بن ابراهيم ، وكان صاحب الشرطة . فاذا فيه صاحب ديوان الخراج ،

---

(١) الطبري ، سنة ١٨٧
(٢) البدء والتاريخ للبلخى ، ج ٦ ، ١١٤
(٣) ابن الاثير ، ج ٦ ، ١٩٠

وصاحب ديوان الضياع ، وصاحب الزمام ، وبعض الكتاب .

فطرحت فى آخر المجلس . فشتمني اسحاق بن ابراهيم أقبح شتم ، وقال : يافاعل ، وياصانع ، تعرضني لاستبطآء أمير المؤمنين ؟ أين الاموال التي جمعتها ، وحبست بسببها ؟

فاحتججت بنكبة ابن الزيات ، فقال لي صاحب ديوان الضياع : أخذت من الناس أضعاف ماأديت ، وعادت يدك الى كتبة أيتاخ ، فأخذت ضياع السلطان وأقطعتها لنفسك وحزتها سرقة اليك . وأنت تستغلها الفي الف درهم ،وتتزيا بزي الوزرآء ! (١)

وقد ذكر التنوخي كثيرا من احاديث هؤلاء المسجونين لديون ومصادرات فليرجع اليه .

٤ ـ الزندقة ، الشعوبية ، القرامطة ، الملاحدة ، الرافضة

وكان الزنادقة يقتلون طورا ويسجنون طورا . وربما اتخذوا الزندقة سبيلا للقتل أو السجن . وكان الزنادقة يودعون سجنا خاصا فى المطبق . ذكر أبو نواس قال : كنت أتوهم حماد عجرد انما يرمي بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبست فى حبس الزنادقة ، فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم ، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم . (٢)

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣

(٢) الاغاني ، ج ١٣ ، ٧١

وقد سجن أبو نواس متهما بالزندقة ، وكان قد عرض بالامين (صاحب التاج) . واعتقد ان تعريضه به هو سبب سجنه ، وأنهم جعلوا الزندقة سببا . فقد قال :

وقد زادني تيها على الناس أنني
اراني أغناهم وان كنت ذا فقرا

فلو لم انل فخرا لكانت صيانتي
فمي عن جميع الناس حسبي من فخر

فلا يطمعن فى ذاك مني طامع
ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فقال له الامين وقد أتى به « أبلغ بك الامر ان تعرض بي في شعرك يا بن اللخناء ... ؟ »

ثم اتخذوا عليه حجة انه زنديق قد شرب ماء المطر مع الخمر وقال : هاانذا أشرب الملائكة ، فان مع كل قطرة ملكا ! (١)

ومن الطريف ان نتابع القصة . فقد ذكروا ان خال الفضل بن الربيع كان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم . وكانت فيه غفلة . فدخل على أبي نواس فقال : ماجرمك حتى حبست فى حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟

(١) الطبري ، سنة ١٩٨ ـ الملح والنوادر ، ص ١٣٥

فقال : معاذ الله !

قال : أتعبد الكبش ؟

قال : ولكني آكله بصوفه !

قال : افتعبد الديك ؟

قال : لا والله ، بل آكله ... ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرني مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا الا ذبحته .

قال : فلأي شيء حبست ؟

قال : لأني أشرب شراب أهل الجنة ، وأنام خلف الناس .
فقال : وأنا أفعل ذلك !

فخرج خال الفضل الى الفضل وقال له : ماتحسنون جوار الله ! تحبسون من لاذنب له ؟ سألت رجلا فى الحبس عن خبره فقال كذا وكذا . وعرفه بما جرى بينهما ، فضحك ودخل على الامين فأخبره الخبر ، فأمر بتخليته ! (١)

وكان الشعوبيون يسجنون لتهجمهم على العرب ، وقد سجن الرشيد أبا نواس لقصيدة قالها وهجا العرب بها . (٢)

وحبس فيما بعد ، محمد بن هارون الوراق الملحد ، ومات فى السجن . وطلب ابن الراوندي الملحد ليسجن ففر . (٣)

---

(١) الملح والنوادر ، ص ١٣٤ — ١٣٥
(٢) حديث الاربعاء ، ص ١١٣
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٠٢

وسجن المقتدر رجالا كثارا من الدعاة الى القرامطة والذاهبين مذهبهم . سجن جماعة من الرافضة ، كانوا يجتمعون في مسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة . (١)

٥ — مخالفة رأي الخليفة

وكان مخالف رأي الخليفة أو الوزير معرضا للسجن . وقد سجن ألوف ، وقتل ألوف فى محنة خلق القرآن . وكان أحمد بن حنبل ، الذي لم يقل بخلق القرآن ، أحد من سجنوا . (٢)

٦ — ادعاء النبوة

وكان المتنبئون يسجنون ان لم يقتلوا . وقد كثر التنبؤ فى عصر بني العباس ، وكان لاصحابه مع الخلفاء نوادر وأحاديث . (٣)

٧ — المجون ، الفسق ، الشراب

وكان المستهترون والفساق ، يسجنون حتى ينالهم العفو . ذكر ابن المعتز أن اسحق بن ابراهيم لما بلغه مافيه أبو العبر من الخلاعة والمجانة أمر بحبسه . فكتب اليه أبو العبر رقعة

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٣١٧
(٢) البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ١٢١
(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٣١

يذكر فيها انه تائب ، ويسأله ان يخرجه من الحبس حتى يعلمه رقية العقرب. فأحضره وقال : اذا رأيت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فانها لاتعود تتحرك .

فضحك وقال: والله انه لايفلح ابدا . (١)

وأمر المهدي ابراهيم الموصلي الا يشرب ، ولا يتبذل ولا يغني . فغنى ابراهيم عند اخوانه وتبذل وشرب ، فضرب ثلاثماية سوط ، وقيده وحبسه . (٢)

ووجد العسس أبا دلامة سكران فى بعض الليالي . فقبضوا عليه ، وأخذوه فخرقوا ثيابه وساجه وحبسوه . فلما أفاق قال أبياتا وأرسلها الى المنصور منها :

أمير المؤمنين فدتك نفسي   علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صهباء صافية المزاج   كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طبخت بنار الله حتى   لقد صارت من النطف النضاج
أقاد الى السجون بغير جرم   كأني بعض عمال الرخاج (٣)

٨ ــ العيارون ، اللصوص ، المجرمون

وكان العيارون واللصوص وقطاع الطريق يودعون السجن . (٤) وقد سجن المأمون نفرا منهم كبيرا ، وقتل آخرين . (٥) ذكر ابن المعتز ان اسحق بن خلف ، وكان

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ١٦٢
(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٥
(٣) ثمار القلوب ، ص ٢
(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٦٥
(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٧٨

احد الشطار الذين يحملون السكاكين ، قتل غلاما فحبس بذلك فما فارق الحبس حتى مات . (١) وهذا مايسمى بالسجن المؤبد فى أيامنا . وذكر ابن الجوزي ان المعتمد حبس ثلاثة من الجند لأنهم سرقوا (٢) . وانه وجدت امرأة قد سرقت صبيا فى خلافة المطيع فشوته وهو حي ، وأكلت بعضه ، وأقرت بذلك . وذكرت ان شدة الجوع حملتها على ذلك . فحبست مدة ثم ضربت عنقها . (٣)

وكان الاطباء الذين يغلطون فيودون بحياة الناس يحبسون. فقد حبس الطبيب النصراني خصيب لانه سقى محمد بن أبي العباس السفاح شربة دوآء فمرض منها ومات ، وبقي في حبسه حتى مات . (٤)

٩ ــ الشعر ، الضحك ، الغناء

وقد يسجن الانسان لأسباب حقيرة لاشأن لها . وتحدثنا كتب الادب ان أبا العتاهية سجن مرة لانه قال :

الا ان ظبيا للخليفة صادني
ومالي عن ظبي الخليفة من صبر (٥)

(١) طبقات ابن المعتز ، ص ١٣٨
(٢) المنتظم ، ج ٥ ، ١٢٤
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ٣١٧
(٤) عيون الانباء ، ص ١٤٨
(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٧٦

وسجن مرة ثانية لان الرشيد أمره ان يتغزل وهو معه فى الرقة فأبى . (١) وكان معه ابراهيم الموصلي ، فأمره ان يغني ، وقد مات الهادي ، فأبى الموصلي أيضا . فحبسه وقال : لايخرجان حتى يغني هذا ويشعر ذاك . (٢)

ويذكر الشابشتي صاحب كتاب الديارات خبرا يدعو الى العجب والاعجاب معا قال : خرج اسحاق بن ابراهيم من عند المأمون ، حتى اذا صار الى الدهليز الثاني في القصر وقف ، ووقف القواد والناس لوقوفه . ثم قال : اين خليفة علي بن صالح ؟

وكان على ذلك الوقت صاحب أمر الدار والمرسوم بالحجبة . فأتى خليفته فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم قال : هاتوا خليفة صاحب البريد ، فأتى به ، فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم دعا بعلي بن صالح ، وبصاحب البريد ، وقال لهما : تقلدان خلافتكما فى دار الخلافة من يضيع الامور ويهملها .. كنتما بهذا الادب أحق من هذين ! فقالا : وما كان من أمرهما الذي أنكرته أيها الامير ؟ قال : صاحب بريد يقعد فى دار الخلافة فيضحك ويقهقه ، وصاحب الدار جالس لاينكر ... ! » (٣)

وفى جميع هذه الاسباب ذكرت كتب الادب أخبارا أخرى ،

---

(١) و (٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٤ — ٥

(٣) الديارات (دير مديان)

أخذنا منها مايقوم به الدليل على ماذهبنا اليه ، ولم نعمد الى التطويل .

***

انواع السجون

نستدل مما اطلعنا عليه من النصوص أنه كان فى بغداد أنواع منوعة من السجون . فهناك المطبق وهو حبس مظلم كبير ، كان المنصور قد بناه بين طريق البصرة وطريق باب الكوفة . وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وكان متين البناء قوي الاساس . وبقي أهم سجون بغداد حتى عهد المتوكل . » (١)

وكان فيها سجن آخر عند باب الشام ، اذا ذكروه قالوا : السجن الذي عند باب الشام ، وكان يهاجم دائما ، وكان عليه عثمان بن نهيك ، وقتل في فتنة الراوندية . (٢)

فلما كان زمن المعتصم أمر ان يبنى حبس فى بستان موسى كان المقيم به مسرور الخادم مولى الرشيد . يقول التنوخي : « وكان هذا البناء يرى من دجلة اذا ركبها المرء . وكان كالبئر العظيمة ، قد حفرت الى الماء أو قريب منه ، وفيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج ، وقد

---

(١) بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، ص ٣٤

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ١٨٦

جعل فى مواضع من التدريج مستراحات ، وفى كل مستـــراح شبيه بالبيت ، يجلس فيه رجل واحد ، كأنه على مقــداره ، يكون فيه مكبوبا على وجهه ، وليس يمكنه ان يجلس ولا يمد رجلـــــه . (١)

ثم بنوا سجنا آخر سموه السجن الجديد . وكان موضعه اقطاعا لعبد الله بن مالك . (٢) وبقي حتى جاء معز الــدولة فهدم سوره سنة ٣٥٠ للهجرة ونقل آجره الى داره فبنى به (٣) ، وفى سنة ٣٥٥ هـ كتب الى طاهر بن موسى ان يبني موضع الحبس الجديد مارستانا . (٤)

ولا نستطيع وصف ماكان فى هذه السجون على التفصيل ، وانما نعلم أنها كانت ذات أقسام . فحبس للزنادقة ، وحبس للعوام ، وحبس للنساء .

وكان فى المطبق الغرف الواسعات والضيقة . وكان فيـه الآبار يسجن فيها . حدث يعقوب بن داود وزير المهدي قال : حبسني المهدي وذلك فى المطبق . فدليت بحبل فى بئر مظلمة . لاأرى فيها الضوء . (٥) قد بنيت عليها قبة ، فكنت فيهـا خمس عشرة سنة . (٦)

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ٢٧٦
(٢) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ٨٧
(٣) المنتظم ، ج ٧ ، ٢
(٤) المصدر السابق ، ج ٨ ، ٣٣
(٥) الفخري ، ص ٢٢١
(٦) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤١

وربما سجنوا فى أماكن ومحال أخرى . فقد سجن سليمان بن وهب فى كنيف قال : فأخذني اسحق (بن ابراهيم ،صاحب الشرطة) وحبسني فى كنيف ، وأغلق علي خمسة أبـــواب . فكنت لاأعرف الليل من النهار . (١) وسجن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات فى كنيف داخل الحجرة ، ودلوا فى بئــــر رأسه بعد أن قيد . وألبس جبة صوف غمست بالنفط .(٢)

وربما سجنوا فى الحجـر الضيقة المظلمة . حــدث أبــو الحسن بن أبي الطاهر قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فى وزارته للقاهر بالله على أبي وعلي معا ، فحبسنا فى حجـرة مـن دار ضيقــة ، وأجلسنا علــى التــــراب . (٣)

وكان الحبس الذي سجــن فيه المهــدي ابراهيم الموصلي مكانا شبيها بالقبر مملوءا بالافاعي والبق . (٤) ولمـا سير المنصور جماعة من أبناء علي الى الكوفــة حبسوا فى سرداب تحت الارض ، لايفرقون فيــه بـين ضياء النهار أو ســواد الليـــل . (٥)

وربما سجنوا فى دار منفردة ، كمـا فعلوا بأبي العتاهية لما

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٣٤
(٢) الصابي ، ص ٢٤٣
(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٥٢
(٤) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٥
(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٠٠

طلب اليه الرشيد ان يتغزل فأبى ، ومنعوا دخول من يريد اليه .

ويذكر ابن الجوزي ان القاهر بنى المطامير ليحبس الجند فيها . (١)

***

وأناس آخرون كانوا لايسجنون فى هذه المحال . فقد كانوا يحبسون من يخافون عليه أو كان له شأن عند الوزراء كما سجن عبد الملك بن صالح بعهد الفضل بن الربيع لما غضب الرشيد عليه . (٢) وكما سجن ابراهيم بن المهدي بعد القبض عليه وقبل العفو عنه عند أحمد بن أبي خالد .(٣) وربما اودعوا عند من يثق الخليفة به ،كما فعل الرشيدعندما سجن موسى بن جعفر بدار السندي بن تاهك . (٤)

وكانوا يتخذون قصور الخلفاء سجونا فى بعض الاحايين . فقد حبس المستعين بن المعتصم ، المعتز والمؤيد ابني المتوكل فى حجرة من حجرات الجوسق الكبير . (٥) ويقول لسترانج ان الخلفاء « اتخذوا دار الشجرة التي شيدها المقتدر حبسا رسميا ، وضعوا فيه أقرب أقربائهم احتياطا من أعمالهم .

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٤
(٢) الطبري ، سنة ١٨٧
(٣) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٨٥
(٤) الفخري ، ص ٢٣٣
(٥) الطبري ، سنة ٢٤٨

وجعلوا فى خدمتهم عددا من الغلمان والخدم ، وجهزوه تجهيزا تاما بوسائل الرفاهية والنعيم ، ومنعوهم من تخطي اسواره . » (١)

ويذكر ابن الجوزي آن القاهر حبس في دار السلطان مدة احدى عشرة سنة من (٣٢١ — ٣٣٣) ، ثم اخرج الى دارابن طاهر ، فكان يحبس تارة ويخلى تارة . (٢)

وفي القرن الرابع أخذوا يسجنون عند القهرمانات . فقد سجن ابن الفرات عند زيدان القهرامانة . (٣) وسلم اليها ايضا الامير الحسين بن حمدان ، والوزير علي بن عيسى .(٤)

***

في السجن :

لانعلم الكثير من أحوال السجناء داخل السجن فى بدءالعصر العباسي . على اننا نورد لك ماكتبه أبو يوسف للرشيد عن المساجين ، لنصور لك ماطلب أن يكونوا عليه . فقد أمر أبو يوسف أن يؤمر بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم ، وان يصير ذلك دراهم تجري عليهم ، وتدفع في كل شهر اليهم : « فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام

(١) بغداد فى عهد الخلافة ، ص ٢٢٠
(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥
(٣) الصابي ، ص ١٠٥
(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٣

والجلاوزة . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجري عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده ، ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر . يقعد ويدعو باسم رجل رجل ، ويكون الاجرآء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد ، وليس كل من فى السجن يحتاج ان يجري عليه » ثم طلب ان تكون كسوتهم فى الشتاء قميصا وكساء وفى الصيف قميصا وازارا . وان يجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وأزار ومقنعة .

ويمعن ابو يوسف فى تصوير هؤلاء العامة من السجناء فيقول : واغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس ، فان هذا عظيم ان يكون قوم من المسلمين قد اخطأوا واذنبوا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا ، يخرجون في السلاسل يتصدقون . وما اظن اهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى ايديهم فكيف ينبغي ان يفعل هذا بأهل الاسلام ؟ وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع .

ولقد بلغني واخبرني الثقات انه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين ، حتى يستأمر الوالي فى دفنه ، وحتى يجمع اهل السجن من عندهم

ما يتصدقون ، ويكترون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة » . (١)

كان المسجون اذا دخل السجن كتبت قصته فى سجل خاص . ومن المؤكد ان هذا السجل كان يحتوي المدة التي ينبغي ان يقضيها . ثم كانوا ينزعون ثيابه فيلبسونه غيرها ، ثم يقيد ، ويقدم له طعام خاص .

حدث ابن وهب قال : اخذني اسحق (بن ابراهيم) فقيدني بقيد ثقيل ، والبسني جبة صوف ، فأقمت كذلك نحو عشرين يوما لايفتح علي الباب الا مرة واحدة فى كل يوم وليلة ، ويدفع لي فيها خبز شعير وماء حار » . (٢)

وحدث سليمان بن وهب قال : « كنت فى يدي محمد بن عبد الملك يطالبني وانا منكوب ، وكان يحضرني كل يوم وانا فى قيودي وعلي جبة صوف » . (٣)

وذكر يعقوب بن داود قال : « حبسني المهدي ... في بئر .. وكان يدلي الي فى كل يوم رغيف وكوز ماء » . (٤)

وقيد جعفر بن يحيى فى حبسه بقيد حمار قبل أن يقتل ثم ضربت عنقه . (٥)

---

(١) الخراج ، ص ٨٨
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣
(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٩٥
(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤١
(٥) الطبري ، سنة ١٨٧

وسأل الرشيد جعفر بن يحيى يوما مافعل بيحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله ياأمير المؤمنين : فى الحبس الضيق والاكبال . (١)

وقيد ايتاخ فى سجنه وصير فى عنقه ثمانون رطلا وقيد ثقيل (٢) وكانت وظيفته رغيفا وكوزا من ماء .

ولما حبس اسحق بن ابراهيم عمر بن فرج البسه جبة صوف وقيده بالاكبال . (٣)

وحبس بختشيوع المتطبب فى المطبق فضرب مائة وخمسين مقرعة وأثقل بالحديد . (٤)

وكانت جبة الصوف تدهن احايين كثيرة بالنفط او بماء الاكارع . (٥) كما فعل بجبة ابن الفرات وغيره . (٦) اما القيد فربما بقيت آثاره بعد فكه ، وهذا ما حدث لأبي العباس احمد بن الفرات ، فقد علق بحبال فى يديه بقيت آثارها فيها مدة حياته . (٧) وربما أهمل المسجونون فلم يكسوا ولم يطعموا كما فعل الرشيد بالبرامكة . (٨)

---

(١) الطبري ، سنة ١٨٧

(٢) الطبري ، سنة ٢٣٥

(٣) الطبري ، سنة ٢٣٣

(٤) الطبري ، سنة ٢٤٥

(٥) الصابي ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩

(٦) الصابي ، ص ١٠٤

(٧) الصابي ، ص ٨ و ٩

(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ١٢١

من هذا كله ترى ان لباس السجناء كان جبة من صوف ، وان طعامهم على الاغلب رغيف ، وشرابهم كوز ماء ، وقيودهم السلاسل والاكبال .

وقد يمنع المسجونون من مقابلة احد جاء لزيارتهم ، وقد يقابلونه بالرشي. حدث محمد بن صالح العلوي قال : « جاءني السجان يوما وقال ان بالباب امرأتين تزعمان انهما من اهلك، وقد حظر علي ان يدخل عليك احد . الا انهما اعطتاني دملج ذهب وجعلتاه لي ان اوصلتهما اليك ، وقد اذنت لهما ، وهما فى الدهليز ، فاخرج اليهما . » (١)

ويقول ابن المعتز « ان البرامكة كان يزورهم فى محنتهم من كان يألفهم ايام نعمتهم حتى ان الرشيد كان يقول لسعيد بن وهب « آنس القوم بحديثك ، واكثر من زيارتهم . » (٢)

***

وهنا قد نتساءل : أكان السجناء يتعلمون فى السجن صناعة ما او علما ؟ يذهب آدم متز (٣) الى ان المسجونين كانوا يشتغلون بنسج التكك ، مستندا الى بيت من الشعر قاله ابن المعتز ، لم نجده فى ديوانه ، وهو :

---

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ١٣١ (ترجمة محمد بن صالح)

(٢) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢١ — ١٢٢

(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٦٥

تعلمت في السجن نسج التكك
وكنت امرءا قبل حبسي ملك

على اننا لانستطيع الجزم بذلك . فابن المعتز سجن في مكان خاص منفرد ، ولم تكن مدة سجنه طويلة حتى يتعلم . على انه اذا نفينا ذلك عن ابن المعتز فقد يكون للسجناء ، في السجون العامة الاخرى .

ويحدثنا ابراهيم الموصلي انه حبس ايام المهدي وضرب قال : فحذقت الكتابة والقراءة فى الحبس » (١) وليس في هذا مايدل على التعميم .

***

وما كادت المائة الثانية من الهجرة تمضي ، حتى بدأت السجون تنال عناية من الخلفاء ، ولا سيما المعتضد ، فقد اوقف لها الاموال الكبار لنفقات المحبوسين وثمن أقواتهم ومائهم وسائر مؤنهم . وقد جعل فى ميزانيته ألف وخمسماية دينار فى الشهر لذلك . (٢) ويحدثنا القفطي انه عين لمن في السجون اطباء أفردوا لذلك ، فكانوا يدخلون اليهم ويحملون الادوية والاشربة ، ويطوفون على سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى . (٣) كما جعل للمحبسين ديوانا خاصا تكتب فيه قصصهم فى دفاتر خاصة يرجعون اليها دائما . (٤)

---

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ٤
(٢) الصابي ، ص ٢١
(٣) القفطي ، ص ٢٢١
(٤) الطبري ، سنة ٢٤٩

التعـذيب والذبـح :

وكانوا يلجأون فى بعض الأحايين الى تعذيب السجين تعذيبا مؤلما . وقد يخص بالعذاب الوزراء والعمال . وسنعرض عليك الوانا مختلفات من التضييق والتعذيب ، فقد كان سليمان ابن وهب فى اول حبسه بالبئر « يأنس بالخنافس وبنات وردان ويتمنى الموت لشدة ماهو فيه . » (١)

وحبس محمد بن القاسم ... بن علي بن ابي طالب في الحبس الذي شيد فى بستان موسى . « فلما أدخل اليه أكب على وجهه فى اسفل بيت منه ، فلما استقر به اصابه من الجهد لضيقه وظلمته ، ومن البرد لندى الموضع ورطوبته ، ماكاد يتلفه . » (٢)

اما الضرب والتعذيب فكثير : فقد ضرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسون مقرعة . (٣) وضرب يحيى بن خالد والفضل بن يحيى . (٤) وسوهر محمد بن عبد الملك ومنع من النوم ، وكان ينخس بمسلة « تؤلمه وتدمي جسده » (٥) . ولما سجن المعتز بعد خلعه دفع الى من يعذبه ومنع من الطعام والشراب ثلاثة ايام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه منها ، ثم

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١١٩
(٣) الطبري ، سنة ٢٤٥
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقي
(٥) الطبري ، سنة ٢٣٣

جصصوا سردابا بالجص السخين وادخلوه فيه واطبقوا عليه فأصبـــح ميتــا . (١)

ومن باب التعذيب ذبح المسجونين . اورد التنوخي قصة نوردها هنا قال : حدث القاضي ابو عمر قال : لما جرى من امر عبد الله بن المعتز ماجرى حبست وما فى لحيتي شعرة بيضاء ، وحبس معي أبو المثنى القاضي ، ومحمد بن داود بن الجراح فى دار واحدة ، وكنت اذا جن الليل حدثت ابا المثنى تارة ، ومحمد بن داود تارة ، وحدثاني من وراء الأبواب ، ويوصي كل واحدنا الى صاحبه ،ونتوقع القتل ساعة بساعة. فلما كان ذات ليلة ، وقد اغلقت الابواب ونام الموكلون ونحن نتحدث من بيوتنا اذ احسسنا بصوت الاقفال تفتح . فارتعنا، ورجع كل منا الى صدر بيته . فما شعرت الا وقد فتح البواب على محمد بن داود ، وأخرج ، وأضجع على المذبح . فقال : ياقوم ذبحا كما تذبح الشاة ؟ اين المصادرات ؟ اين انتم من اموالي افتدي بها نفسي ؟ فما التفتوا الى كلامه ، وذبحوه وانا اراه من شق الباب ، وقد اضاء السجن من كثرة الشموع ، وصار كأنه نهار . واحتزوا رأسه فأخرجوه معهم ، وجردوا جثته ، وطرحت فى بئر الدار ، وغلقت الابواب . قال : فأيقنت بالقتل ، وأقبلت على الصلاة والدعاء والبكاء ، فما مضت الا ساعة واحدة حتى أحسست بالاقفال تفتح ،

(١) الطبري ، سنة ٢٥٥

فعاودني الجزع ، واذا هم جاؤا الى بيت ابي المثنى ففتحوه وأخرجوه وقالوا له : يقول لك أمير المؤمنين ، ياعدو الله ، يافاسق ، بم استحللت نكث بيعتي وخلع طاعتي ؟ فقال : لأني علمت انه لايصلح للامامة ! فقالوا : ان امير المؤمنين قد امرنا باستتابتك من هذا الكفر ، فان تبت رددناك الى محبسك ،والا قتلناك . فقال اعوذ بالله من الكفر ، مااتيت مايوجب الكفر . فلما ايسوا منه مضى بعضهم وعاد ، فاضجعوه وذبحوه وانا اراه ، وحملوا رأسه وطرحوا جثته فى البئر . فذهب على امري ، واقبلت على الدعاء والبكاء والتضرع الى الله . فلما كان وجه السحر سمعت صوت الاقفال ، فقلت : لم يبق غيري ، وانا مقتول . فاستسلمت ، وفتحوا الابواب فأقاموني الى الصحن ، وقالوا : يقول لك امير المؤمنين : يافاعل وياصانع ماحملك على خلع بيعتي ؟ قلت : الخطأ وشقوة الجد ، وانا تائب الى الله عز وجل من هذا الذنب . فجاؤا الى بخفي وطيلساني وعمامتي ، فلبست ذلك وأخرجت ، فجيىء بي الى الدار التي كانت برسم ابن الفرات فى دار الخليفة . فلما رآني اقبل يخاطبني بعظم جنايتي وخطائي ، وانا اقر بذلك ،واستقيل واتنصل ، فقال : وهب لي أمير المؤمنين دمك ، وابتعت منه جرمك بمائة الف دينار ، الزمتك اياها . » (١)

ولم يكن التعذيب على ضروبه مقتصرا على خواص

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٠٨

المسجونين ، بل كان يصيب من كان فى السجون العامة . فقد رؤي في ايام المقتدر رجل فى المطبق مغلولا ، على ظهره لبنة حديد فيها ستون رطلا .

***

على ان هناك صلة بين التعذيب عند العباسيين والتعذيب عند أهل أوروبة فى القرون الوسطى ، وان كان التعذيب في اوروبة يفوق تعذيب العباسيين شدة وفظاظة . فقد بلغوا فيه مبلغا من القسوة لايجاريهم فيه احد . وقد ذهبوا في الظلم والارهاق مذاهب شتى ، وتنافسوا فى ابتكار اشد وسائل الارهاب فى السجن فظاعة . من ذلك ان بعض السجون المظلمة التي كان يزج فيها السجناء كانت اشبه بمغاور تحت الارض ، يوصل اليها بسلاليم ، لاينفذ اليها النور . وكانت السلاليم مؤلفة من عدة درجات ، يختلف بعضها عن بعض فى حجمها وارتفاعها . والغرض من جعلها كذلك تضليل النازل حتى تزل قدمه فيهوي الى قاع السجن الرهيب .

وكان فى نورمبرع سجن يتناقل الناس اشد الاخبار هولا عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف بالسجن الاحمر . كانوا يقلعون فيه اظافير السجناء ، ويفقأون عيونهم ، ويضغطون على عظامهم بآلات حديدية فتسحق وتهرس ، او يدفعونهم ليناموا فى اسرة ذات مسامير محماة تنخزهم نخزا مؤلما فتسيل دماؤهم . وكان فى السجن نفسه

كساء حديدي يدخل فيه المسجون فيطبق عليه ، وكان له من داخله مسامير حادة تنفذ فى الجسم فيقاسي الرجل انواعا من الآلام حتى يموت .

وكان فى مدينة لاهاي سجن يسمى « جيفانجن بورث » كان المسجونون فيه يصابون بالجنون قبل ان يموتوا لشدة ماكانوا يعانون من العذاب ، كالكي بالحديد وقطع الاعناق بحز الرؤوس حزا بطيئا .

وفى مدينة هاليفكس كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة الى السقف بحبل اذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فيموت . (١)

وفى سجن قمة سان ميشيل فى فرنسة كان السجناء يدفعون الى كهوف فى بطن الارض فيها الافاعي وضروب الحشرات ، وقد ملئت بالماء الراكد القذر فيموت المسجون موتا بطيئا ، وربما ضرب او عذب حتى يموت . (٢)

اللهو :

على اننا نرى من تمام البحث ، وقد اوردنا طرفا من

---

(١) انظر مقالة عن السجون فى العصور الوسطى فى مجلة الهلال ، ج ٩ للسنة ٣٩ ، ص ١٤٦٨ – ١٤٧٢

(٢) انظر كتاب (فونك برنتانو : سجون الماضي) وخاصة وصف سجن شاتلـه .

الوان التعذيب ان نسوق طرفا من اللهو الذي كان يتمتع بـه بعض المسجونين فى بعض السجـون . حـدث ابـو علي بن مقلـة قـال :

« من ظريف ما اتفق لي فى نكبتي التي ادنتني مـن الوزارة اني اصبحت وانا محبوس مقيد فى حجرة من دار ياقوت امير فارس . وقد لحقني من الاياس من الفرج وضيق الصـدر ما اقنطني وكاد يغلب على عقلي . وكنت انا وفلان محبوسين مقيدين فى بيت واحد ، الا انا على سبيل ترفيه وأكـرام . فدخل علينا كاتب لياقـوت كـان كثيرا مـا يجيئنا برسالة ، فقال : الامير يقرأ عليكما السلام ، ويتعرف اخباركما ويعرض عليكما قضاء أي حاجة لكما . فقلت : تقرأ على الامير السلام وتقول له ضاق والله صدري واشتهيت ان اشرب على غنـاء طيب (قال) والمحبوس معي يخاصمني ويقول : ياهذا ، والله مافي قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى وعاد يقول : الامير يقـول حبا وكرامة ، أي وقت شئت .

قلت : السـاعـة .

فلـم تمـض سـاعـة حتـى جـاؤا بالطعـام والمشـام والفاكهـة والنبيـذ . وصفـف المجلـس . فجلست ، والمحبوس معي ، مقيدا ، وقلت : تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغني به لنا فى هـذه السـاعـة . وجاءت

المغنية وغنتنا غناء طيبا ، فقطعنا يومنا بـين لهـو وشـراب وغنـاء . » (١)

وحدث احمد بن المدبر انه« لما أمر محمد بن عبد الملك بحبسي ادخلـت محبسا فيه احمـد بن اسرائيل وسليمان بن وهب فجعلت فى بيت ثالث . وكنا نتحدث ونأكل جميعا ، وربمـا ادخل الينا النبيذ فنشرب ونلهو . » (٢)

مـدة السجن :

لم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات اجل معروف . فقد حبس اسحق بن خلف القاتل حتى مات (٣) . وهذا مايشبه السجن طوال الحياة فى ايامنا . وسجن يعقوب بن داوود خمسة عشر عاما . (٤) وحبس رجـل سرق كساء ثمنه درهمان سنتين . (٥) وسجن أبو نـواس ثلاثة أشهر . (٦) وأبو دلامة ليلة واحدة . (٧) وحبـس الرشيد زلزلا المغني لوجد عليه عشـر سنين . (٨) فى حين سجن المتقي فى جزيرة بمقابلة جزيرة السندية خمسا وعشرين سنة . (٩) وهذا يشبه السجن مع النفي فى هذه الايام .

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٨
(٢ الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩
(٣) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢٨
(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٨
(٥) تاريخ طيفور ، ص ٢٥
(٦) الملح والنوادر ، ص ١٣٤
(٧) ثمار القلوب ، ص ٢٠
(٨) الاغاني ، ج ٥ ، ٢٢
(٩) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥

فأنت ترى ان ليس للسجن اجل محدود ، وانما كان الخروج منه محصورا فى سبل خمسة سنذكرها فيما يلي :

الخروج من السجن :

اما السبل التي يخرج بها المسجونون فهي :

الفرار ، كسر السجن ، موت الخليفة ، العفو ، حيلة يحتال بها .

اما الفرار فحوادثه كثيرة ، نسوق اليك مثالا : حدث محمد بن القاسم ، وكان المتوكل قد قبض عليه وسجنه فى سجن منفرد قال :

كنت ادبر امري فى التخلص منذ حبست . وكان فى البيت الذي حبست فيه خلاء الى الغرفة التي فوقه وخلاء فى الغرفة الى سطحها ، وكنت قد ادخلت معي منذ حبست لبدا فكان وطائي وفراشي . وكنت ارى فى (برغش) ، وهي قرية من قرى خراسان ، حبالا تعمل فيها من لبود كما يفعل بالسيور ، فتجيء احكم شيء . فسولت نفسي ان اعمل من اللبد الذي تحتي حبلا . وكان على باب البيت قوم وكلوا بي يحفظونني لايدخل علي منهم احد ، وانما يكلمونني من خلف الباب ويناولونني من تحته ما أتقوته ، فقلت لهم : ان اظفاري قد طالت جدا وقد أحتجت الى مقراض . فجاءني رجل بمقراض . وقلت لهم : ان فى هذا البيت فيرانا يؤذونني اذا قربوا مني ، فاقطعوا لي

جريدة من النخل تكون عندي اطردهم بها . فقطعوا لي جريدة من بعض نخل البستان ، ورموا بها الي . فأخذت أضرب بها فى البيت وأسمعهم صوتها اياما . ثم قشرت الخوص عنها ، وقطعتها على مقدار ما علمت انها تعترض فى ذلك الخلاء اذا رميت بها . فضممت كل ماقطعته منها بعضه الى بعض ، وقطعت اللبد ، وضفرت منه حبلا على ماكنت ارى يعمل بغرش ، ثم شددت ماقطعته من الجريدة فى رأس الحبل ، ثم رميت به فى الكوة وعالجته مرارا حتى اعترض فيها . ثم اعتمدت عليها وتسلقت الى الغرفة ، ومن الغرفة الى سطحها ، وفعلت ذلك اياما ، وشددت القيد مع ساقي . فلما كانت ليلة العيد ، وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب ، صعدت بين المغرب والعشاء الى الغرفة ، ومن الغرفة الى سطحها ، ثم تدليت بالحبل الى بستان مجاور وفررت ... » (١)

كسر السجن :

وكان يحدث كثيرا ان يكسر السجناء او العامة السجن فيخرج من فى السجون وكثيرا مانقرأ فى الطبري : « وفى هذه السنة كسر العامة السجن . »

فمن ذلك أنه لما خرج الراوندية على

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٠ .

أبي جعفر المنصور ، وكانوا قوما يقولون بتناسخ الارواح ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور (١) اخذ ابو جعفر رؤساءهم فحبسهم . فأقبلوا يطوفون حول قصر الخلافة وقد غضبوا . واعدوا نعشا وحملوا السرير ، وليس فى النعش أحد ، ثم مروا فى المدينة حتى صاروا على باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، وكسروا باب السجن فدخلوا واخرجوا اصحابهم . (٢)

ولما شغب الجند على الامين نقب اهل السجون سجونهم وخرجوا منها فلم يجازهم أحد . (٣) وحاول اهل السجن ان يشغبوا على المأمون ، وان ينقبوا السجن ، فسدوا الباب من داخل ولم يدعوا احدا يدخل عليهم ، وأخذوا فى نقب السجن . فلما كان الليل وعلا شغبهم وصوتهم ، ذهب المأمون فدعا بنفر من الشطار واصحاب الشغب فى السجن فضربت اعناقهم ، وصلبوا على الجسر . (٤) وهكذا أخفقت هذه الثورة فى السجن .

وفى زمن المستعين سنة ٢٤٩ هـ اجتمع العامة فى بغداد بالصراخ والنداء والنفير ، وانضمت اليها الشاكرية ، ففتحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من كان فيه . وانتهب ديوان

(١) الفخري ، ص ١٨٨
(٢) الطبري ، سنة ١٤١
(٣) الطبري ، سنة ١٩٦
(٤) تاريز طيفور ، ص ١٧٨

قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر وألقيت فى الماء . (١)

وفى زمن المهتدي (سنة ٢٥٥) اجتمع جماعة من الجند والشاكرية ومعهم جماعة من العامة ، حتى صاروا الى سجن باب الشام ، فكسروا بابه فى الليلة الثالثة عشرة من رمضان واطلقوا اكثر من كان فيه . ولم يبق من اصحاب الجرائم الا الضعيف والمريض والمثقل . (٢)

وفى زمن المعتمد (سنة ٢٧٨) نقب المطبق من داخله وفر بعض المسجونين . (٣)

وقبيل وفاة الموفق (سنة ٢٧٨) قامت العامة فانتهبت دار الوزير اسماعيل بن بلبل ، وفتحت الجسور وابواب السجون ، ولم يبق احد فى المطبق ولا الجديد الا أخرج . (٤)

وفى سنة ٣٠٧ شغبت العامة فكسرت الحبوس فى مدينة المنصور فأفلت من كان فيها . (٥)

وفى زمن المقتدر (سنة ٣٠٨) غلت الاسعار ببغداد وشغب العامة ووقع النهب ، وركب الجند فيها ، وشتتهم العامة ، واحرقت الحبس وفتحت السجون . (٦)

(١) الطبري ، سنة ٢٤٩
(٢) الطبري ، سنة ٢٥٥
(٣) الطبري ، سنة ٢٧٢
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٤٦٠
(٥) تاريخ بغداد ، ج ١ ، ٧٥
(٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٣

ولا بد ان نلاحظ ان كسر السجون كان نتيجة الشغب والفتن ، وعصيان الجند وغلاء الاسعار واضطراب العامة . وهذه امور كانت مما خص بها العصر العباسي الثاني . وقد كان للأتراك الشأن الكبير فيها ، ولن نورد كل ماذكره المؤرخون فى هذا الباب فحسبنا ماذكرنا .

موت الخليفة وعزل الوزير : وكانوا يطلقون السجناء لموات الخليفة او عزل الوزير . حدث التنوخي عن احمد بن المدبر قال : « لما سجنت مع احمد بن اسرائيل ، وسليمان بن وهب معا ، قال لي سليمان ذات يوم : رأيت البارحة فى نومي كأن قائلا يقول لي : يموت الواثق الى ثلاثين ليلة . فلما كان يوم الثلاثين ، وكان الليل ، لم نشعر بالباب الا وقد دق دقا شديدا ، وصاح بنا صائح : البشرى ، قد مات الواثق فاخرجوا . » (١)

وربما اطلق الخليفة الجديد المسجونين زمن الخليفة السابق كما فعل المهدي ، فقد امر باطلاق من كان فى سجن المنصور، الا من كان قبله تباعة من دم او قتل او معروفا بالسعي في الارض بالفساد . فأطلقوا من فى المطبق . (٢)

واطلق المقتدر عند توليه اهل الحبوس الذين يجوز اطلاقهم، وامر محمد بن يوسف القاضي ان ينظر فى ذلك . (٣)

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩
(٢) الطبري ، سنة ١٥٩
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٩

وذكر ابن الجوزي ان الراضي لما ولي الخلافة أمر باطلاق من كان فى حبس القاهر فأطلقوا جميعا . (١)

وربما يطلقون لعزل الوزير او موته . حدث محمد بن الحسن الكاتب صاحب الجيش قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، فى وزارته للقاهر ، على أبي وعلي معا . فحبسنا فى حجرة من دار ضيقة ، وأجلسنا على التراب ، وشدد علينا . فقال لنا الموكلون بنا ذات يوم : قد عزم الوزير على قتلكما الليلة ... فتغير حالي ، وقام ابي يدعو الله ويصلي ، فلما مضى ربع الليل سمعت الباب يدق ، فذهب عني امري ، ولم اشك انه القتل . وفتحت الابواب فدخل قوم بشموع ، فتأملت فاذا فيهم سابور خادم القاهر. فقال : انصرفا الى منزلكما . واذا بالقاهر قد قبض على الوزير محمد بن القاسم وعزله . (٢)

العفو : وقد يطلق المسجونون بعفو من الخليفة ، او بحيلة يحتالون بها بشفاعة شخص من الاشخاص .

وقد تشفع سجين الى طاهر بن الحسين ، بأمرأة اسمها ديذا ، كان يحبها ، فأطلقه . (٣)

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٦
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٥٢ — ٥٣
(٣) تاريخ بغداد ، ص ١١٨

- ١٢ -

تقليد الخلفاء والوزراء بالملابس والازياء

يقول الدكتور « لالو » فى كتابه « الفن والحياة الاجتماعية» ان العامة مطبوعة على تقليد من هو أرفع منها مكانة ، وأعلى شأنا . لاسيما تقليدها فى ملابسها وأزيائها ، وفى كل جديد يصدر عنها ، ليصدق قانون التقليد الذي نوه به « تارد »من وجود مخترعين يضعون الازياء ، ومقلدين يتبعون ماوضعوه . فواضعو الازياء ،هم ،على الاغلب ، المترفون الارستوقراطيون من الملوك ، والامراء ، والوزراء ، والاغنياء . هؤلاء يفتنون باختراع زي (مودة) من الازياء ، فاذا رأته الطبقة المتوسطة او العامة ، حلي ذلك فى أعينهم ، وأحبوا تقليده . وتمر برهة يعم الزي فيها بين الطبقات كافة ، وعندئذ تخترع الطبقة المترفة زيا جديدا يميزها من غيرها ، وما يزال هذا التبدل فى الازياء مستمرا ، مادامت الطبقات الاجتماعية باقية .

ويغلب حب التقليد عند النساء ، على الرجال . فلن تجد آخذ لعقولهن ، ولا أجذب لأسماعهن ، من منظر أزياء المترفات والتحدث عليها . ولعل هذا التقليد طبع يخالط اللحم والدم.

ولقد صادفت منهن من تجوع لتلبس لبسة فلانة أو فلانة من المترفات ، وتستدين لتحلى حلية بنت الكبير أو خليلةالوزير. وتجد فى ذلك التقليد ، من اللذة والزهو ، ماينسيها ألم الجوع ، وعار الدين .

***

ولست أحب أن أستفيض فى الأدلة ، الا ان هذه الظاهرة تبدو واضحة جلية فى العصر العباسي ، ونستطيع ان نأتي بأمثلة منها .

فقد ذكروا ان يعقوب بن داود ، وزير المهدي ، كان له طراز خاص من الطيلسانات والقلانس ، قلده الناس فيها . وانتشر هذا الطراز . فلما غضب عليه المهدي ، نادى في اصحابه : لايوجد احد عليه طيلسان يعقوبي ،وقلنسوة يعقوبية الا أخذت ثيابه ، لان ذلك طراز الوزير فى اللباس .

وذكر أبو الفرج الاصبهاني ان علية بنت المهدي ، كان في جبينها فضل سعة تسمج به . وكانت علية اديبة ، ظريفة شاعرة . فاخترعت ، وهي الاميرة ، العصائب وجعلتها على جبينها ،ورصعتها بالجوهر والدر ،فقلدت النساء جميعا عصابة الاميرة ، وانتشرت العصائب انتشارا كبيرا ، وتفنن النساء بعدها بتزويقها وزركشتها ، فلم ير فيما ابتدعت النساء اجمل ولا احلى مما ابتدعت علية .

وهذا يذكرنا بالمركيزة د بومبادور . فقد كانت تلبس الزي فيتبعها نساء البلاط ، ثم سائر نساء الناس .

وكان جعفر بن يحيى ، على قول الجهشاري ، طويل العنق . وكان اول من عرض الجربانات وحشاها بالقطن . فاستملحها الناس ، ولبسوها مثله ونسبوها اليه ، فكانوا يقولون : انه يلبس جربانا برمكيا .

ولما افضت الخلافة الى الامين قدم الخدم وآثرهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم ، واشتغاله بهم ، أتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، وألبستهن الاقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت اليه بهن ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن وأجتذبن قلبه اليهن ، وأبرزهن للناس من الخواص والعوام . قال المسعودي : فاتخذ الناس مثله الجواري المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

ويحدثنا الشابشتي ، صاحب الديارات ، ان عريبا ، المغنية المشهورة ، ووصيفة الامين ، رؤيت وهي فى سن سبع عشرة سنة ، تلبس القباء والمنطقة وتقوم على رأس الامين .

وزبيدة كانت اول من رصع الخفاف بالجوهر ، ولبست الثياب الموشاة المنسوجة بالذهب ، فقلدتها النساء فى ذلك أيما تقليد .

وكان المنصور قد احدث لبس القلانس الطوال وفرضها

على الناس ، فهزأ ابو دلامة من هذه القلانس التي تشبه الدنان ، فأبطلت . فلما جاء المعتصم ، وكان ميالا للتشبه بالأعاجم في ملابسه أعاد لبس هذه القلانس الطوال تشبها بملوك الاعاجم ، فلبسها الناس تشبها بفعله وسميت « المعتصميات » .

فلما جاء المتوكل أظهر لبس ثياب الملحم ، والملحم ثوب مسدود لافتحة له ، وفضل ذلك على سائر الثياب ، وأتبعه من فى داره على لبس ذلك ، ثم انتشر هذا الطراز من اللباس ، وشمل الناس لبسه وسميت الثياب المتوكلية .

ويظهر ان المستعين لم يرض عن القلانس الطوال . فلما جاء صغرها . فأنتشرت القلانس الصغار بين الناس تشبها وتقليدا ، وأحدث الكمام الواسعة ، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، فسار الناس على لبسها .

***

فأنت ترى شغف الناس بتقليد أزياء خلفائهم أيام بني العباس ، وما كان يومئذ ، تجده فى كل وقت ، وعصر ، ومكان . ولقد رأيت ، ماعلل به التقليد « تارد » ، وما ذهب اليه « لالو » ، ولابن الطقطقي ، صاحب الفخري فى الآداب السلطانية ، رأي يقارب رأي لالو ، فقد قال : « والحق ان الناس يتبعون ملوكهم فى زيهم ، ويقلدونهم فى لباسهم ورسومهم وآدابهم ، لان انفسهم مطبوعة على تقليد من هو أرفع منهم » .

ثم يضيف الى ذلك فكرة جديدة فيقول : « ولانهم علموا ان زيهم الاول مستهجن فى نظر الخلفاء ، فتقربوا اليهم بزيهم ... »

- ١٣ -

عشق القيان

كان للقيان فى العصر العباسي الشأن العظيم والمنزلة العليا . ولم تشغل الحرائر ما شغلته القيان فى الادب والتاريخ والاجتماع . ولم يكن لهن ماكان لأولاء من أثر في تهذيب النفوس وصقل الطباع وانتشار المجانات ، الا من أوتيت منهن الامارة والجاه والسلطان ، شبيهات علية وزبيدة والعباسة .

وقد خلا ادبنا العباسي من صور المخدرات ، ولكنه رف بكثير من صور هؤلاء الجاريات . ففيه عنهن أشياء حسان ، واحاديث ظراف ، وأوصاف بارعات .

ولم تبلغ القيان هذه الرفعة وتلك المنزلة الا بعد الجد والجهد والتعليم والتلقين ، والصقل والتهذيب . فكن يتخرجن على كبار المغنين أشباه الموصلي وأبن المهدي ، ويحذقن العزف والضرب ، ويتفقهن فى العربية ،ويحفظن نوادر الاحاديث وفرائد اللغة وأمالي المجالس وشوارد الاشعار ، ثم يبرعن في أظهار الاناثة والدل ، حتى تصبح القينة مصدر غواية وفتون ،

ومثار دعابة ومجون ، وبهجة الارواح ومنية النفوس . فلا غرو أن اقبل عليهن الشبان والشيخان ، ولا عجب ان هن اتقن فن العشق ، واصابت سهامهن قلوب الابعاد والاحباب .

وقد ألفت عنهن رسائل كثيرة منها « رسالة القيان » للجاحظ ، وكتاب « القينات » لاسحق بن ابراهيم الموصلي وكتاب « القينات للمدائني » ، وكتاب « القينات » ليونس بن سليمان المغني ، وغيرها . (١)

على انه لم يصل الينا من هذه الرسائل كلها غير رسالة الجاحظ التي ذكر فيها الكثير من احوال القيان وطبائعهن وميولهن واخلاقهن وطرقهن فى الاغوآء . وقد خصهن ابو الطيب الوشاء فى كتابه « الموشى » بفصل ممتع عن عشقهن وغرامهن . زاد فيه على ماذكره الجاحظ ، وأفاد .

وقد لاتجد فى أدبنا العربي صفحة أكثر متوعا ، وأبرع وصفا وأحلى سطوعا ، وأشد دقة ، من وصف الجاحظ والوشاء عن عشق القيان والحيل التي يتبعنها لاستمالة الشبان ، والسبل التي يسلكنها لطردهم اذا نفدت دنانيرهم وافلسوا . فلقد وفقا فى وصفهما توفيقا بعيدا .

لاجرم أن الجاحظ كان أسبق الى وصف ذلك ،ولكنه اجمل

---

(١) انظر هذه التواليف فى مقال لنا نشر فى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعنوان (ماألف عن النساء) الجزء الخامس من المجلد السادس عشر ، ١٩٤١ .

وأوجز . أما الوشاء فلم يتعد ماقاله الجاحظ الا قليلا ،ولكنه شرح وفصل .

والمهم فى وصف هذا العشق ، ان الكاتبين أبانا عن عواطف كامنة ، وطرق مغرية ، وحيل واقعية ، حتى لتشعر ، وانت تقرأ ، أنك اليوم بين يدي غانية من غواني الحانات ، اللواتي تخرجن فى الفتنة والاغوآء : يجدن بالقبلة الشهية ، والعضة الندية ، ليبتززن الدراهم والاموال .

فقد قرروا ان القينة لاتكاد تخلص ، أو تناصح فى ودها . لانها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها . (١) ذلك لان حبهن ، كلهن ، كذوب وعشقهن متبدل غير ثابت . فهو لطمع او غرض . ولذا كن يقصدن أهل النشب واليسار ، ويصدفن عن ذوي الافلاس والاقتار . (٢)

وكان من عادة القينة اذا رات فى مجلس فتى له غنى ، ان تميل اليه لتخدعه . فتمنحه بادىء بدء نظرها ، وتغمزه بطرفها ، وتشير اليه بكفها ، وتداعبه بالتبسم ، وتغازله بأشعار الغناء ، فتغني على كاساته ، وتميل الى مرضاته . ثم تظهر الشوق الى طول مكثه ، والميل الى سرعة عوده ، حتى توقع المسكين فى حبالها وتعلق قلبه بحبها ، وتطمعه فى قربها ، ثم

(١) رسالة القيان ، ص ٧٠
(٢) الموشى (ليدن) ج ٢ ، ٩٣

تحزن لرواحه وتبكي لفراقه ، وتكاتبه تشكو اليه هواها ، وتقسم له انه ضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لاتريد سواه ، ولا تؤثر احدا على هواه ، ولا تنوي أنحرافا عنه. ثم تعزز ذلك بالرسل ، وتخبره عن سهرها وتنبيه عن فكرها ، وتشكو اليه القلق ، وتخبره بالارق ،وتبعث اليه بخاتمها ، وفضلة من شعرها ، وقلامة من ظفرها ، ولبان قد جعلته عوضا عن قبلتها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات من دمعها ، وضمنته الشوق والشكوى ، وسألته المواتاة على حبها . وربما منحته من ريحانها ، وأهدت اليه فى النيروز سكرا ، وفى المهرجان خاتما ، وأخبرته انها لاتمل الدموع اذا غاب ، ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت .. حتى اذا رأت انها حوت عقله ،وصارت شغله ، وأستمالت لبه، وسلبت قلبه ، وعلمت انه غريق فى بحر حبها ، أخذت فى طلب الهدايا ، فتشهت الثياب والاردية والعمائم والخفاف والعصائب المرصعة ، وخواتيم الياقوت ، ثم تمارضت من غير سقم ، وتعالجت من غير حاجة منها الى الدوآء ، لتجيئها هدايا ذوي الوجد من القمص المعنبرة ، والغلائل المسكة ، والاردية المرشوشة ، ومخانق الكافور ، والمسك الاذفر ، والعنبر الاشهب ، والعود الهندي ، والماورد الجوري ، والفراريج ، والجداء الرضع ، والدجاج الفائق ، والفراخ المسمنة ، والرياحين والفاكهة ، يتبعها صنوف من الشراب : من العسل والمطبوخ والمشمش ، تلحقها الدنانير والدراهم . فلا تزال فى

هدايا متواترة ، وألطاف متتابعة ، حتى اذا نفد اليسار وذهب الاكثار وأتلف المال ، وأحست بالافلاس عمدت الى طرق اخرى .

لقد بلغت ماكانت تتمنى منه من مال وهدايا . ونالت ماكانت تتشهى من ثياب ، وشراب ، وعطور ، ومآكل وفاكهة، فلتصرفه عنها ، ولتبحث عن عاشق غر جديد .

تعمد عندئذ الى اظهار الملل من محبها القديم . فتتبرم بكلامه ، وتضجر بسلامه ، وتتفقد منه الزلل ، وتتبع عليه سقطاته ، ثم تأخذ فى الجفاء والعتاب ، ثم تصرف عنها هواه ، وتميل الى سواه ، ثم تهجره ، فحينئذ يدرك المغرور الندم والاسف ، فلا ينفعه ندم ولا أسف .

لقد كان المال ، هدف القيان . وكن يحتملن القبح والشيب مع اليسار . ويكرهنهما مع الفقر . وهذا شأن الحسان كلهن .

« فليس للفقر مع الحب عمل » .

وربما أجتمع عند القينة من مربوطيها ثلاثة أو أربعة ،وعندئذ يتحامون الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء . فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالاخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطي واحدا سرها والاخر علانيتها ، وتوهم أنها له دون الاخر ،

وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها وحرصها على الخلوة به دونهم جميعا (١).

***

وبعد ، فما رأيت أبرع ولا احسن ولا ارق ولا املح ، ولا أنفذ فى العواطف من هذا الوصف . حتى لتحسب انك امام عالم نفسي مجرب ، لايدع غمزة ولا اشارة ولا حيلة الا أحصاها . وليت شعري أكان الجاحظ والوشاء عاشقين لقيا : عشق القيان الجهد والعناء ،فثأرا منهن بهذا الوصف الخالد . وكأني بالجاحظ ، « وهو الذي عابوه بملك القيان » قد تيمه هواهن ، وأذبل قلبه حبهن . أو أنه رأى عن قرب ماكن يصنعن . فقال : « ولو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو اليه ، ولا فتنة يستهوي بها الا القيان ، لكفاه . » ثم يستدرك فيقول : « وليس هذا بذم لهن ، ولكنه من فرط المدح . وليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون ، الا دون مايحسن . »

على ان الجاحظ يتخذ لفتنةالقيان أعذارا. يقول : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانماتكتسب الاهوآء ، وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ . وهي تنشأ من

(١) رسالة القيان ، ص ٧١ — ٧٣ — والموشى ، ج ٢ ، ٩١ — ٩٥

لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والاخابيث ، وبين الخلعاء والمجان . وتروي الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعدا . يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة أبيات ، اذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة . ثم لاتنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ، وانشادهم مراوده ، وهي مضطرة الى ذلك فى صناعتها ، لانها ان جفتها تفلتت ، وان أهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت . » (١)

تلك صفحة رائعة من ادبنا العربي ، وصورة بارعة من الصور البارعة التي يعرضها علينا العصر العباسي ، وهي صورة حية فيها قوة وصدق وجمال .

(١) رسالة القيان ، ص ٧٢ — ٧٣

- ١٤ -

من مجالس اللهو فى العصر العباسي

ايصح ان نطلق على العصر العباسي اسم عصر اللهو ؟

قد يكون فى ذلك مبالغة ، لان ذلك العصر كان فيه من كل شيء ، وان كان الناس فيه قد أطلقوا لانفسهم حرية التمتع والتلذذ . عصر حر فى كل شيء .. شاعت فيه الحرية شيوعا كبيرا فلم يحرم منها انسان ولا جهلتها نفس . من المؤمن الى الزنديق ، ومن الغني الى الفقير .

كانت قصور الخلفاء مراكز ممتازة من مراكز اللهو . فيها الغنا والترف ، وفيها الصباحة والجمال ، وفيها النساء والغلمان ، وفيها اطيب الشراب واهنأ المآكل .. وبالجملة فيها كل مايساعد على اللهو ويدعو اليه .. فلا عجب اذا امتلأت الكتب بأخبار مجالس اللهو فى تلك القصور .

لن احدثك عن هذه المجالس المترفة ، ولكني سأحدثك عن مجالس أخرى ترى فيها صورتين متناقضتين من الصور المتناقضة الوفيرة عند العباسيين ، سأحدثك عن لهو المجان والفساق ، وعن لهو القضاة ورجال الدين .

قدم لنا عصر العباسيين ظاهرة تكتل الشباب الـذين يجمعهم وحدة المشرب والذوق والتفكير . كان هؤلاء يجمعهم نظام واحد فى الحياة ، يعيشون كمـا يشاؤون ، ويلهـون كمـا يحبون . ويحدثنا صاحب مطالع البدور عن فئة مـن هؤلاء كانوا ابناء نعمة فشردوا عن اهلهم وقنع بعضهم ببعض، اكتروا دارا مشرفة على الطريق ببغداد ، المعمورة بالناس . وكان هؤلاء يفلسون احيانا ويوسرون احيانا على مقدارمايملق الواحد من أهله ، أو يوسر . فكانوا اذا أيسروا أكلوا وشربوا ودعوا الملهين والملهيات ، واذا افلسوا قطعوا الوقت فى النظرالى الناس رائحين غادين . (١)

مثل هؤلاء الفتية كثير .. وما شردوا عن اهلهم الا ابتغاء التمتع بالحرية واللهو واللـذة .. وليعيشوا علـى هـواهم الـذي ارتضـوا .

من هؤلاء الفتية ، اناس من الخلعاء والمجان . كانوا من اظرف الناس احسنهم شعرا واكثرهم نادرة واشدهم مجونا وخلاعة . كمطيع بن أياس ، ويحيى بن زياد ، وحماد عجرد ، وحماد الراوية ، وكانوا جميعا على منهاج واحد فى الخلاعة ، وكل متهم بالزندقة .

ذكر الشابشتي ان هؤلاء اجتمعوا ذات يـوم يشربون ،

---

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ١٩٣ .

فأقاموا على ذلك اياما عندهم خمرهم ، وعنـدهم قينتهم . فقال لهم يحيى بن زياد ، وهم سكارى : ويحكم ماصلينا منذ ثلاثة أيام ، فقوموا بنا حتى نصلي !

فقالوا : « نعم » ، فقام مطيع فأذنواقام ، ثم قال للمغنية : تقدمي فصلي بنا !

فتقدمت ، وكانت بلا سراويل ، وعليها غلالة رقيقة ، فلما سجدت انكشف متاعها ، فوثب اليه مطيع فقبله ، ثم قال :

ولمـا بـدا هنهـا جـاثمـا   كرأس حليـق ولم تعتمد
سجـدت عليه وقبلته   كمـا يفعل العابد المجتهـد

فقطعوا صلاتهم بالضحك ، ثم عادوا الى ماكانوا عليه .(١)

وذكر ايضا ان يحيى بن زياد كتب الى مطيع يوما : انانشيط للشرب ، فان كنت فارغا فصر الي ، وان كان عندك نبيـذ طيب وغناء جئتك . فجاءته الرقعة وعنده حماد الراويـة وحكم الوادي وغلام امرد فأجابه :

نعـم لنـا نبيـذ   وعنـدنا حمـاد
وعنـدنا وادينـا   وهـو لنا عمـاد
ولهـونا لـذيـذ   لـم تلهه العبـاد
او تشتهـي فسـادا   فعنـدنا فسـاد
او تشتهـي غـلاما   فعنـدنا زيـاد

---

(١) الديارات ، ص ١٦٣

وخيـرنـا كثيـــر والخيـــر يستـــزاد

فلما قرأ الرقعة ، صار اليهم ، فتمموا بقية يومهم . (١)

وهكذا كانت مجالس هؤلاء ملأى باللذة والمتعة والغلمان والنساء ، والنوادر والشعر .. وكانوا يتآمرون فيما بينهم ، على غلام او على فتاة ، وتجري امور لاتصدر الا فى جو من الحرية المتطرفة التي تشيعها الحضارة فى المجتمعات والمدن .

ولكن هؤلاء فتية من المجان لاحـرج عليهم اذا جاهـروا بالمعاصي ، ولذوا طعم الحرية فى كل شيء .. فهل اتـاك احاديث الكبار والقضاة ؟..

ذكر الثعالبي انه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزيـر المهلبي ويجتمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابـن قريعة ، وابن معروف ، والتنوخي ، وما منهم الا ابيض اللحية طويلها . فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وضع فى يد كل منهم كأس ذهب وزنه الف مثقال مملوء شرابا قطربليا ، او عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرب أكثره ، ويرش منه بعضهم على بعض ، ويرقصون اجمعهم وعليهم لباس الشراب من المصبغات . فاذا اصبحوا عادوا الى عادتهم من التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة ، وحشمة المشايخ الكبراء (٢)

---

(١) الديارات ، ص ١٦٣

(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٤

- ١٥ -

لفيف من خلعاء العصر العباسي

أمر الخلاعة فى العصر العباسي أمر فرغ منه . كان ذلك العصر ولا شك ، عصر خلاعة ومجون ، وقد تعدى ذلك الى الفسق والدعارة ، ولكن من هم الخلعاء الذين زينوا مجالس الخلاعة ، ومن هم ابطال الدعارة فى هاتيك الايام ؟

سيمر بخاطرك اسماء قلائل ، مرت بك اثناء قراءآتك فعرفتها ، وستذكر مطيعا وحمادا وابا نواس ، ولكن هؤلاء لم يكونوا وحدهم الخلعاء الذين رغبوا فى اللهو واللذائذ ،واعرضوا عما سوى ذلك .. بل كـان هناك كثيـرون مثلهم ، مئآت ، والوف ، لم تحفظ الكتب القديمة التي بين ايدينا اخبارهم وحوادثهم . وسيرهم ، فجهلناهم . او ظلت سيرهم هذه دفينة فى الكتب المخطوطة التي لم تنشر ، فلم يأتنا خبر عنهم .

ولكن نشر كتاب « الديارات » للشابشتي اتاح لنا الاطلاع على اسماء جديدة لبعض اولئك الذين اطلقوا لانفسهم العنان فعاشوا بحرية تامة ، لم يحفلوا بقيود الدين او المجتمع ، ولم يأبهوا بتقاليد الآباء والاجداد .

وكتاب « الديارات » هذا ، ذو شأن كبير ، فى هذا الباب ، فهو من الكتب النوادر الحسان التي يجب الرجوع اليها في دراسة الحياة الاجتماعية فى كثير من وجوهها فى ايام العباسيين ، وانك لتجد فيه من مظاهر المجتمع العباسي مالا تجده فى كتاب آخر ، فهو يفضل عندي ، من بعض النواحي ، كتاب الاغاني وكتاب الفرج بعد الشدة ، وكلاهما مما يعتمد عليه فى دراسة ذلك المجتمع المضطرب الغريب ، الفوار ، الحي .

وسأعرض عليك اذن بعض اسماء الخلعاء التي يمدنا بها كتاب الديارات هذا لترى وجوها جديدة وانموذجات من الخلاعة طريفة .

فمن هؤلاء ابو الشبل البرجمي ، كان فى ايام المأمون وادرك المتوكل ومدحه وعمر طويلا ، وكان من الطياب ، وله شعر مليح . وكان منعكفا على الشرب لايفارقه ، ولا يوجد الا سكرانا . وكان يتطرح فى الديارات والحانات ومواطن اللهو لايغبها ولا يتأخر عنها .

وكان له صديق نخاس يبيع الرقيق اسمه محمود الوراق ، وكانا لايفترقان وكانا يلهوان ويشربان معا . حدث ابو الشبل قال : صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا الخمار ، فقلنا : ايتنا ببنت عشر قد انضجها الهجير !

فجاءنا بها ، فقلنا : اسقنا !

فسقانا ، فقلنا : اشرب واسقنا !

فقال : انا مسلم (وكان يهوديا قد اسلم) ، فقال لي محمود : قوم يكون الخمار عندهم مسلما متحرجا ، وهم عند الخمار كفار ، اترى لله فيهم حاجة ؟

ومنهم الحسين بن الضحاك . وكان من الادباء والشعراء واهل الخلاعة والمجون ، ويعرف بالخليع . ونادم جماعة من خلفاء بني العباس منهم : الامين والمعتصم والواثق والمتوكل . وكان مستهترا بالخدم جدا لم يقصر عن ذاك حتى مات وله اشعار حلوة فى الغلمان والشراب .

وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع شاعرا حسن الرواية حسن العلم ، وكان من الادباء الظرفاء ، صاحب غزل ومجون ، كثير التطرح فى الديارات والحانات ، متبعا أهل اللهو والخلاعة . وكان له شعر يتغنى به . وهو القائل فى غلام احبه :

اقمت بالدير حتى صار لي وطنا
من اجله ، ولبست المسح والصلبا
وصار شماسه لي صاحبا وأخا
وصار قسيسه لي والدا وأبا

وكانت دعوته :

فخذ من الدنيا ولذاتها
فأنما نحن بها عارية

وأكثر شعره بغلمان الديارات .

ولم يكن ابو جفنة القرشي يخلو من غلمان مرد : بعضهم يخدمه وبعضهم يغنيه . وكان من الخلعاء ومدمني الشرب ، والمتطرحين فى الديارات والحانات ، وله في غلمان الديارات اشعار حلوة .

وكان ابو العيناء من الطياب ، وشعره فى دير باشهرا حلو عذب يقول :

نزلنا دير باشهرا   على قسيسه ، ظهرا
فأولى من جميل الفعل   مايستعبد الحرا
وسقانا ، وروانا   من الصافية العذرا
ونلنا كل مانهوا   ه من لذاتنا جهرا
فتكنا وتهتكنا   ومثلي هتك السترا ..

واشتهر عمرو بن عبد الملك الوراق . وكان من الخلعاء المجان ، المنهمكين فى البطالة والاستهتار بالمرد والتطرح في الديارات ، وله شعر كثير فى المجون ووصف الخمر وهوالقائل عن نفسه :

ايها السائل عني   لست من اهل الصلاح
انا انسان مريب   اشتهي نيل الملاح
قد قسمت الدهر يومين :   لفسق ولراح

ولازم ابو شاس الديارات ، واكثر من وصف الخمر ، وكان مفتونا بالرهبان لايزال يلازمهم . وله شعر حلو .

وبالغ مصعب الكاتب فى التهتك ، وكان من اشد الناس خلاعة ومجوناواستهتارا بالمرد وتطرحافى الحانات والديارات. واشعاره كلها فى الغلمان.ومن شعره فى غزلان دير الزعفران :

وغزلان مراتعها فؤادي   شجاني منهم ماقد شجاني
رضيت بهم من الدنيا نصيبا   غنيت بهمعن البيض الغواني
اقبل ذا والثم خد هذا   وهذا مسعد سلس العنان

وكان يتخذ الصلاح وسيلة للتغرير بالغلمان والمرد ، واشعاره فى التحدث عن الغلمان نسيج وحدها .

وثمة شاعر اسمه اللبادي كان من طياب الناس وملاحهم ، وذوي المجانة والخلاعة . وسمي اللبادي لانه كان يلبس ابدا على ثيابه لبادا احمر ، وله شعر جيد فى غلام كان بدير احويشا .

وخلف يموت بن المزرع ، وهو ابن اخت الجاحظ ، غلاما اسمه المهلهل . وكان شاعرا مطبوعا ، انهمك فى الخلاعة واللعب والتطرح فى مواطن اللهو والطرب ، ولازم الحانات والديارات .

واكثر منه فى الانهماك الثرواني الكوفي كان متطرحا في الحانات ، مدمنا شراب الخمر ، مفرقا فى أتباع المرد لايعرف شيئا غير ذلك ، ولا يوجد فى شيءمن امر الدنيا الا فيه. وكان آخر امره ان وجد فى حانة خمار بين زقي خمر وهو ميت .

- ١٦ -

الشعراء الفقراء في العصر العباسي

سيد هؤلاء الشعراء ، على ما اعلم ، هو ابو الشمقمق . فقد كان شخصية غريبة شاذة ، لايحفل أحدا . وكيف يحفل احدا وقد مر به اعرابي ذات يوم فأوقفه وقال له : خذ هذه الدراهم واهجني . فأطرق الاعرابي هنيهة ثم قال : « والله ما رأيت احدا يشتري الهجو بالثمن غيرك » . وهجاه .

على ان الشيء الذي يثير شغفك عند هذا الشاعر ، هو وصفه الجوع والفقر وذل المسألة وصفا مؤلما . فهذه نغمة من نغمات الادب في العصر العباسي ، لم يعن احد بتصويرها ، كما صور البذخ والترف والغنى والمجون . وقد أبنت في كتابي « الظرفاء والشحاذون » ان هؤلاء الفقراء كانوا كثارا ، غير ان ماوصل الينا من شعرهم قليل . وانا هنا أميز هؤلاء الفقراء حقا من الناس الذين اتخذوا الفقر مهنة وصناعة ، ثم أصبحوا من المكدين . والفرق بين هؤلاء واولئك كبير . فالفقراء حقا نجد في شعرهم لوعة الحرمان ، ونجد وصف الاولاد والبنات الجياع ، ونجد الوانا من الصور

الانسانية المؤلمة التي تثير شفقتك ، وقد تثير دمعتك . اما الذين اتخذوا الفقر والكدية صناعة فما نجد لديهم غير الحيل والتفنن بها ، هذه الحيل التي لاتستدر دمعتك ، بل تثير دهشتك وعجبك .

وابو الشمقمق ، عندما يصف لك ماذكرت ، يحاول ان يأتي بكل غريب يظهر فقره ومسغبته . اسمعه يقول :

ان العيال تركتهم   بالمصر خبزهم الغضارة
وشرابهم بول الحما   ر مزاجه بول الحماره

فهؤلاء أهلوه ، لايجد خبزا يأكلونه ، ولا شرابا يشربونه ، فيميلون الى خبز الغضارة ، وشرب بول الحماره .

والناس يفخرون ان يأكلوا الوانا من الطعام ، وضروبا من الفاكهة ، كل يوم ، ويقصدون جعل مائدتهم غانية حافلة ، قصدا . أما ابو الشمقمق فيفتخر بالخبز ، فاذا وجد معه اللحم ، فهذا أمان من الفقر .

ماجمع الناس لدنياهم   انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته   فأنت في أمن من الترز

وانظر اليه يصف اولاده وأهله ، بنبرة لوعة وحزن :

وقد دنا الفطر وصبياننا   ليسوا بذي تمر ولا أرز
وذاك ان الدهر عاداهم   عداوة الشاهين للوز
كانت لهم عنز فأودى بها   واجدبوا من لبن العنز

فلو رأوا خبزا على شاهق   لأسرعوا للخبز بالجمــز

وثمة شاعر آخر ، عرف بالفقر ، هو ابو الينبغي . وكــان شاعرا مطبوعا ، جيد البديهية ، خبيث اللسان . وكان قــد هجا الفضل بن مروان فحبسه بعد ان أغرى به الواثق ،فبقى فى السجن حتى مات ، فعاش فقيرا ، ثم مات سجينا ، سأله ابو هفان وهو محبوس : ماكان من قصتك ؟ قال : انا أبــو الينبغي ، قلت مالا ينبغي فحبست حيث ينبغي .

لعلكَ تجد فى شعره نغمة جديدة ، نغمة فيها أظهار تباين الارزاق والحظوظ ، ولكنه مع ذلك لايثــور ، بــل يصبــر علــى مضض .

صبــرا على الــذل والصغار   من خالق الليل والنهار
كم مــن حمار على جــواد   ومن جــواد على حمــار

وهذا البيت الثاني أوتى شهرة واسعة . قال ابن المعتز فى طبقات الشعراء : وطار هذا البيت فى الآفاق ، ولهج به الناس فهو ينشد فى كل مجلس ومحفل وسوق وطريق . واذا كان هذا شأن البيت أيام ابن المعتز ، فما أجدره ان يعاوده حظــه اليوم ، وان ينشد فى كل مجلس ومحفل وسوق وطريق ،بعد ان كثر الحمير الذي يركبون السيارات (خيول) اليوم .

وكان فقره يدفعه الى التعرض الى الوزراء والكبار فــي مواكبهم . ذكروا انه عرض يوما ليحيى بن خالد فى مــوكبه .

والفضل وجعفر عن يمينه وشماله ، وفى الموكب وجوه الناس فقال له رافعا صوته :

صحبت البرامك عشرا وعشرا   فخبزي شراء وبيتي كرا

قال ابو هفان : فلما كان من الغد جئته فقلت : ويحك ! ماذا! صنعت بنفسك ولم تعرضت للبلاء ؟

فقال لي : اسكت ياعاجز ! والله ما أمسيت امســس حتى وافتني من عند الفضل بدرة ، ومن عند جعفر اخرى ، وقــد أجرى لي كل واحد من مطبخه وظيفة .

ونستطيع ان نلحق بهذين ، شاعرا ثالثا هــو الحمدوني . وكان من املح الناس شعرا ، واقدرهم على الوصف . وقــد كان فقيرا ، وكان له طيلسان وهب له ، ثم حال لونه وتخرق، ولم يستطع ان ينال طيلسانا آخر . فكان عامة شعره فى هذا الطيلسان .

ياأبن حرب كسوتني طيلسانا   مل من صحبة الزمان وصدا
فحسبنا نسيج العناكب لوقيس الى ضعف طيلسانك سدا
ان تنفست فيه تنشق شقــا   او تنحنحت فيه ينقد قــدا

وما زال يرفو طيلسانه حتى اســود :

فيما كسانيه ابــن حرب معتبــر
فانظر اليه فانه احــدى الكبــــر

قد كـان ابيض ثـم مازلنا بــه
نرفوه حتى اسود من صدأ الابـر

وقد ذكروا ان له فى طيلسانه هذا قريبا من مائتي بيت تفنن في معانيها .

واخيرا نجـد شاعـرا رابعـا ، لابد مـن التنويه بـه ، هو أبـو فرعون الساسي . ولعل حظه من الفقر كان وافرا ، بل كان اوفر ممن سبقه . وكان أبو فرعون من افصح الناس وأجودهم شعرا ، وأكثرهم نادرة ، ولـه فى الفقـر آيـات بارعـات . استمع اليه يصف بيته وما فيه :

ليس اغلاقي لبابـي ان لي   فيه مااخشى عليه السرقا
انما أغلقه كـي لا يـرى   سوء حالي من يجوب الطرقا
منزل أوطنه الفقـر فلو   دخل السارق فيـه سرقا
لاتراني كـاذبا في وصفه   لو تراه قلت لي قد صدقا

اما وصفه اولاده الصغار الجياع ،وطوافه لجمع الطعام لهم فمن عيون شعره.وقد اوردناها فى كتابنا الظراف والشحاذين فى العصر العباسي ، وفيها يقول :

وصبية مثل فراخ الـذر   سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهـم بشـر   بغيـر قمـص وبغير أزر
حتى اذا لاح عمود الفجر   وجاءني الصبح غدوت أسري
وبعضهم ملتصق بصدري   وبعضهم منحجر بحجري
أسبقهم الى أصول الجـدر   هذا جميع قصتي وأمري

فارحم عيالي وتول أمري   أنا أبو الفقر ، وأم الفقـر

أبيات رائعة فيها تصوير صادق واقعي لحالته وحالة اولاده. هؤلاء الفراخ ، السود الوجوه ، العراة ، بغير قمص وبغيـر أزر .. الذين يلتصقون بصدره وينحجرون بحجره .. من أجل هؤلاء الصبية يطلب الرحمة ويسمى نفسه أبا الفقر وأم الفقر .

وهذه الشكوى في اغلب شعره ، فهو دائما يشكو الفقر والجوع ، وان عياله لايأكلون . هذه قصيدة يخاطب فيها الخليفة ويقـول :

اليك أشكـو صبية وأمهم   لايشبعون وأبـوهم مثلهم
قد أكلوا اللحم ولم يشبعهم   وشربوا الماء فطال شربهم
وامتذقوا المذق فما أغناهم   والمضغ ان نالوه فهو عرسهم
لايعرفون الخبز الا باسمه   والتمر هيهات فليس عندهم
وما رأوا فاكهة في سوقها   وما رأوها وهي تنحو نحوهم
وجحشهم أجرب منقور القرى   ومثل اعواد الشكاعي كلبهم
ادعو لهم يارب سلم أمهم

فهذه أبيات فيها طرافة وحياة ، لانها تصف ما في هذه الحياة . وموضوع الشعراء الفقراء واسع ذو نواح مختلفات ، وانما هذه صور لهذه الشعراء جديرة بأن توسع وتفصل.

فهرس الكتاب

	ص
تمهيد	٣
١ ـ حكومة النساء لدى الخلفاء	٥
٢ ـ القرية الفضية	١٧
٣ ـ اعراس الخلفاء وولائمهم	٢٣
٤ ـ الورد فى حياة الخلفاء	٣٦
٥ ـ الغلمان فى حياة الخلفاء	٤٥
٦ ـ جواهر الخلفاء العباسيين	٥٠
٧ ـ الخلفاء العباسيون والهدايا	٦٢
٨ ـ مآكل الخلفاء العباسيين	٧٤
٩ ـ الخلفاء العباسيون والتجسس	٨٦
١٠ ـ ملاهي الخلفاء	١٠٠
١١ ـ سجون بغداد	١١٧
١٢ ـ تقليد الخلفاء والوزراء	١٥٠
١٣ ـ عشق القيان	١٥٤
١٤ ـ من مجالس اللهو	١٦١
١٥ ـ لفيف من خلعاء العصر العباسي	١٦٥
١٦ ـ الشعراء الفقراء	١٧٠